دعوة الحق

السنة الثامنة - العدد ٨٧ - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



بقلم

د. علي محمد حسن العماري

تصدرها رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝



مقدمـــة

الصلاة والسلام على نبينا محمد سيد الأولين والآخرين وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فإن من أحب الأمور إلى المسلم أن ينظر ، ويطيل النظر فى كتاب الله تعالى ، أذ يجد فيه راحة النفس ، وطمأنينة القلب ، وشفاء الصدر ، وغذاء الروح .

على أنه من أشق التبعات على الباحث أن يتعرف على مراد الله تعالى من محكم كلامه ، وأن يقول الكلمة الفاصلة ، أو القريبة منها ، أو الشبيهة بها فى معنى من معانيه .

فالعرب الذين أنزل فيهم القرآن على نبيهم - ﷺ - كانوا من العلم بلغتهم ، والفقه لأسرارها ، والادراك الكامل لمقاصدها ، كانوا من كل ذلك بحيث استطاعوا أن يفهموا آيات القرآن على وجهها الصحيح ، وأن يتذوقوا بيانه الرائع ، ويلموا بمقاصده الحكيمة .

وقد أدركوا - بادىء ذى بدء - أنه كتاب السماء ، وأنه فوق قوى البشر وقُدَرهم ، وكان صحابة رسول الله - ﷺ - يسألونه إذا ندَّ عن أفهامهم شىء من القرآن ، أو يلتمسون معناه فى لغات العرب .

أما نحن - وقد مضى على نزول القرآن أربعة عشر قرناً - فقد طال علينا الأمد ، وبعدت الشقة بيننا وبين هؤلاء العرب ، وليس معنا النبراس الذى نعشو إلى ضوئه إذا التبست المعالم ، وأطبقت الظلمات .

وفى هذه القرون الطويلة طرأ على لغة العرب فى ألسنتنا وأذواقنا ما يمكن أن نقرر معه أننا أشبه بالغرباء عنها .

فلسنا مطبوعين على هذه اللغة ـ وهذا ما لا مجال للشك فيه ـ ودراستنا لها من ثنايا كتب النحو والبلاغة واللغة وفقهها دراسة نظرية لعلها أن أقامت ألسنتنا على الصواب ، وصانت أقلامنا عن الخطأ لم تقم أذواقنا على نهجها ، ولم تفتح قلوبنا على أسرارها .

وقد قال أبو عمرو بن العلاء ـ وهو من كبار علماء اللغة والنحو فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى ـ قال : اللسان الذى نزل به القرآن ، وتكلمت به العرب على عهد النبى ـ ﷺ ـ عربية أخرى عن كلامنا هذا .

وقد سئل ـ رحمه الله ـ عن شعر لامرىء القيس الكندى ، وآخر للحارث اليشكرى ، فقال : ذهب من يحسن هذا .

فإذا قيل هذا فى القرن الثانى الهجرى ، والعهد بمنابع اللغة قريب فماذا عساه يقال فى عصرنا ؟! .

لذلك ينبغى أن يفكر ، ويطيل التفكير كل من يندب نفسه لتفسير شىء من كتاب الله ، أو لاستنباط حكم من بعض آياته ما لم يكن على ثقة من قدرته اللغوية ، وذوقه البيانى .

ولهذا ـ أيضا ـ كان جهداً شاقاً ـ مع ما فيه من متعة وسعادة ـ أن أكتب بحثاً عن الإنسان فى القرآن الكريم ، ولكننى مضيت مستعيناً بالله ، طامعاً فى عفوه أن زل القلم ، أو ضل البيان ، أو عثر الفكر .

وبعد أن أجلت النظر ، وأطلت التفكير فى أى جانب من جوانب القرآن أكتب شعرت بثلج فى الصدر ، وطيب فى النفس أن أكتب عن هذا الجانب ، مع أن كل جوانب القرآن حبيبة إلى

النفس ، أثيرة لدى القلب ، متعاطفة مع الضمير والوجدان .

وإنما اخترت هذا الجانب لأن كل الجوانب الأخرى تلتقى معه ، وتتصل به ، بل أستطيع أن أؤكد ـ والعلم عند الله تعالى ـ أن الإنسان هو المقصود من كل ما جاء فى القرآن من إلهيات وغيبيات وتشريعات ، ولكننا عند البحث نفصل بعضها عن بعض لنحدد الخصائص والسِّمات لكل قبيل منها .

فقد تحدث القرآن عن الله ـ سبحانه ـ وصفاته ، وأورد الأدلة الحاسمة على وحدانيته وقدرته وعلمه وإرادته ، وتحدث عن البعث والحساب والجنة والنار والملائكة والجن ، وأوضح أصول الشريعة وفروعها ، والمقصود من كل ذلك هو تصحيح عقيدة الإنسان وتهذيب سلوكه وإرشاده إلى الطريق السوىّ الذى ينتهى به إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، والله ـ عزّ وجلّ ـ يقول : **﴿ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾**[1] .

فالله ـ سبحانه ـ كرم الإنسان ونعّمه ، ووهب له العقل ليهتدى به فى ظلمات الحياة ، وأرسل الرسل لتبين له طريق الخير والشر ، وسخّر له الكائنات لينتفع بها ، وبذلك فضلهم ـ كما تصرح الآية على كثير ممن خلق .

وقد كانت هذه الآية ـ وبخاصة عبارة منها ـ مثار جدل بين علماء المسلمين ، إذ استدل المعتزلة ـ بجانب أدلة أخرى ـ على مذهبهم فى تفضيل الملائكة على البشر لأن الآية تصرح بأن التفضيل كان على (كثير) ولم يكن على كل من خلق الله .

---

(١) سورة الإسراء . الآية ٧٠ .

وقد بلغت حدة الجدل ، وفرط الاعتداء بالمذهب ، بلغت بعالم من علمائهم هو جار الله الزمخشرى أن يخرج عن حد الاعتدال ، وعن عفة الكلمة ، فيرمى خصومه من أهل السنة ـ عند تفسيره لهذه الآية بآبدة من أوابده كان الأحرى به فى علمه وفضله أن يمسك القلم دونها ، وأن يطهر تفسيره منها ومن أمثالها .

وقد رد أهل السنة بردود تؤيد ـ مع أخوات لها ـ مذهبهم فى تفضيل البشر على الملائكة .

من ذلك ما ذكره على بن محمد البغدادى المعروف بالخازن فى تفسيره ، قال : «على كثير من خلقنا» ظاهر الآية يدل على أنه فضل بنى آدم على كثير ممن خلق لا على الكل ، فقال قوم : فضلوا على جميع الخلائق إلا على الملائكة ، وهذا مذهب المعتزلة ، وقال الكلبى : فضلوا على الخلائق كلهم إلّا على طائفة من الملائكة مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وأشباههم ، وقيل : فضلوا على جميع الخلق وعلى الملائكة كلهم .

فإن قلت : كيف تصنع بكثير؟ قلت : يوضع الأكثر موضع الكل كقوله تعالى : **﴿يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾**[1] أى كلهم[2] .

وقد أطال الفخر الرازى فى عرض هذه القضية ومناقشتها عند تفسيره لقوله تعالى : **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾** من سورة البقرة ، وذكر أولاً أن القائلين بأن الأنبياء أفضل من الملائكة هم أكثر أهل السنة ، والقائلين بأن الملائكة أفضل هم المعتزلة ، قال : وهو قول جمهور الشيعة ، وهذا القول اختيار القاضى أبى

---

(١) سورة الشعراء . الآية ٢٢٣ .

(٢) تفسير الخازن (لباب التأويل فى معانى التنزيل) جـ ٣ ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

بكر الباقلانى من المتكلمين منا وأبى عبدالله الحليمى من فقهائنا .

ثم ذكر عشرين دليلاً نقلياً واثنتى عشرة حجة عقلية على تفضيل الملائكة وردها جميعاً ، ثم ذكر أموراً عشرة احتج بها من قال بفضل الأنبياء وذكر الاعتراضات التى وردت عليها ، واعتبر ذلك آخر المسألة ، وسكت .

غير أن صنيعه واضح فى أنه مع أكثر أهل السنة ، فهو حين يرد أدلة المعتزلة يبالغ فى الرد ، وحين يذكر الاعتراضات التى وردت على الحجج التى ذكرها أهل السنة يوجز ويجمل فى أكثرها .

ولنأخذ مثلاً قوله فى آية الاسراء التى ذكرتها : (الحجة الحادية عشرة : قوله تعالى : **﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾** ومخلوقات الله تعالى إما المكلفون أو من عداهم ولا شك أن المكلفين أفضل من غيرهم ، أما المكلفون فهم أربعة أنواع : الملائكة والإنس والجن والشياطين ، ولا شك أن الإنس أفضل من الجن والشياطين ، فلو كان أفضل من الملك أيضاً لزم حينئذ أن يكون البشر أفضل المخلوقات ، وحينئذ لا يبقى لقوله تعالى : **﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾** فائدة ، بل كان ينبغى أن يقال : وفضلناهم على جميع من خلقنا تفضيلا ، ولما لم يقل ذلك علمنا أن الملك أفضل من البشر) .

هكذا قرر دليل المعتزلة بكل وضوح ، ثم قال فى الرد عليه : (ولقائل أن يقول : حاصل هذا الكلام تمسك بدليل الخطاب ، لأن التصريح بأنه أفضل من كثير من المخلوقات لا يدل على أنه ليس أفضل من الباقى إلا بواسطة دليل الخطاب ، وأيضاً فهب أن جنس الملائكة أفضل من جنس بنى آدم ولكن لا يلزم من كون أحد المجموعين أفضل من المجموع الثانى أن يكون كل واحد من أفراد

المجموع الأول أفضل من المجموع الثانى ، فإنا إذا قدرنا عشرة من العبيد كل واحد منهم يساوى مائة دينار ، وعشرة أخرى حصل فيهم عبد يساوى مائتى دينار والتسعة الباقية يساوى كل واحد منهم ديناراً فالمجموع الأول أفضل من المجموع الثانى إلا أنه حصل فى المجموع الثانى واحد هو أفضل من كل واحد من آحاد المجموع الأول فكذا ههنا .

وأيضاً فقوله : «وفضلناهم» يجوز أن يكون المراد : وفضلناهم فى الكرامة التى ذكرناها فى أول الآية ، وهى قوله : ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم**﴾ ، ويكون المراد من الكرامة حسن الصورة ، ومزيد الذكاء ، والقدرة على الأعمال العجيبة ، والمبالغة فى النظافة والطهارة ، وإذا كان كذلك فنحن نسلم أن الملك أزيد من البشر فى هذه الأمور ، ولكن لم قلتم أن الملك أكثر ثواباً من البشر؟!

وأيضاً ، فقوله : ﴿**خلق السموات بغير عمد ترونها**﴾[1] لا يقتضى أن يكون هناك عمد غير مرئى ، وكذلك قوله تعالى : ﴿**ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به**﴾[2] لا يقتضى أن يكن هناك إله آخر له برهان فكذلك هنا) .

أى أن ﴿**وفضلناهم على كثير**﴾ لا يقتضى أنا لم نفضلهم على القليل ، وهذا ما أشار إليه سابقاً بقوله : (تمسك بدليل الخطاب) ، وتقريره ـ كما قاله فى تفسير آية الإسراء ـ أن يقال : أن تخصيص الكثير بالذكر يدل على أن الحال فى القليل بالضد .

وواضح أن الفخر الرازى لا يقول بهذا الدليل : (التمسك

---

(١) سورة لقمان . من الآية ١٠ . أما آية الرعد فهى : ﴿**الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها**﴾ .

(٢) سورة (المؤمنون) من الآية ١١٧ .

بدليل الخطاب) ، وهو مذهب طائفة من العلماء .

وللفخر هنا لفتة لطيفة ذكرها فى قوله : (قال فى أول الآية : ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم**﴾ ، وقال فى آخرها : «وفضلناهم» ، ولابد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار .

والأقرب أن يقال : أنه تعالى فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ، ثم أنه تعالى عرضه بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة ، والأخلاق الفاضلة ، فالأول هو التكريم ، والثانى هو التفضيل) .

ولابن قيم الجوزية فصل يذكر فيه عناية الله سبحانه وتعالى بالنوع الإنسانى رأيت أن أنقله ـ على طول فيه ـ لأنه يتضمن خلاصة ما يمكن أن يصل إليه الباحث فى هذا الشأن .

قال : (اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه ، وخلقه لنفسه ، وخلق كل شىء له ، وخصه من معرفته ومحبته وقربه وأكرمه بما لم يعطه غيره ، وسخّر له ما فى سماواته وأرضه وما بينهما حتى ملائكته الذين هم أهل قربه ـ استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته وظعنه وإقامته ، وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسل إليه رسله ، وخاطبه وكلمه منه إليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم ، والأولياء والخواص والأحبار ، وجعلهم معدن أسراره ، ومحل حكمته ، وموضع حبه ، وخلق لهم الجنة والنار ، فالخلق والأمر ، والثواب والعقاب مداره على النوع الإنسانى ، فإنه خلاصة الخلق ، وهو المقصود بالأمر والنهى وعليه الثواب والعقاب .

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات ، وقد خلق أباه بيده ،

ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء ، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات ، وطرد إبليس عن قربه ، وأبعده عن بابه إذ لم يسجد له مع الساجدين ، واتخذه عدوا له .

فالمؤمن من نوع الإنسان خير البرية على الاطلاق ، وخيرة الله من العالمين ، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه ، وليتوارد إحسانه إليه ، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته ، ولم يخطر على باله ، ولم يشعر به ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة ، العاجلة والآجلة التي لا تنال محبته إلا بطاعته ، وإيثاره على ما سواه ، فاتخذه محبوباً له ، وأعدّ له أفضل ما يعده محب غني قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه ، وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه ، وأعلمه فى عهده ما يقربه إليه ، ويزيده محبة له ، وكرامة عليه ، وما يبعده منه ، ويسخطه ، ويسقطه من عينه)[1] .

ومع كل ما أنعم الله به على بني البشر كما جاء فى هذه النقول السابقة ، وفى غيرها ، وهو كثير ، مع كل ذلك قلَّ فى الناس المؤمنون ، وقلّ فى المؤمنين الصادقون ، وقلّ فى الصادقين الورعون .

بذلك تحدثت آيات القرآن الكريم : **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾**[2] **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون﴾**[3] . **﴿وقليل من عبادى الشكور﴾**[4] . **﴿إنَّ الإنسان لظلوم كفار﴾**[5] . **﴿وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على**

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين جـ ١ ص ٢١٠ .
(٢) سورة يوسف . الآية ١٠٣ .
(٣) سورة يوسف . الآية ١٠٦ .
(٤) سورة سبأ . الآية ١٣ .
(٥) سورة إبراهيم . من الآية ٣٤ .

بعض إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم﴾[1]

هذا ما أخبر به القرآن الكريم . وهذا هو واقع الحياة ، وحقيقة البشر ، ويكفى أن نتأمل عصرنا الذى نعيش فيه ، بل تكفى النظرة العابرة ، فكم فى الناس المؤمنون وكم فى المؤمنين المخلصون لإيمانهم ؟ .

ولو استعمل الناس عقولهم ، ولو خضعوا لما توحى به وجداناتهم لآمنوا جميعاً ، ولكن سبقت كلمة الله تعالى : **﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾**[2]

هكذا تمت كلمة الله تعالى ، وهكذا حق القول منه سبحانه كما جاء فى سورة السجدة : **﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾**[3] .

وجهنم لا تشبع : **﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾** (ق : ٣٠) .

والقرآن الكريم يحدثنا ـ أيضاً ـ عن الأمم السابقة : وأن أتباع الأنبياء كانوا قليلين ، فى قصة نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام يقول القرآن : **﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلّا قليل﴾**[4] .

وفى قصص الأنبياء الآخرين نجد أن المعاندين للرسل ، والمناهضين لدعوتهم هم (الملأ) ، فى قصة هود ـ عليه السلام ـ :

---

(١) سورة (ص) . من الآية ٢٤ .
(٢) سورة هود . من الآية ١١٩ .
(٣) الآية ١٣ .
(٤) سورة هود . الآية ٤٠ .

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ [1] . وفى قصة صالح عليه السلام ـ : **﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾** [2] . وفى قصة شعيب ـ عليه السلام ـ : **﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا﴾** [3] .

و (الملأ) الكبراء والسادات الذين جعلوا أنفسهم أضداد الأنبياء ... وهم الذين يملأون صدور المجالس ، وتمتلىء القلوب من هيبتهم ، وتمتلىء الأبصار من رؤيتهم ، وتتوجه العيون فى المحافل إليهم ، وهذه الصفات لا تحصل إلا فى الرؤساء ، وذلك يدل على أن المراد من الملأ الرؤساء والأكابر [4] .

* * *

ويجهد نبينا محمد ـ ﷺ ـ فى دعوة قومه إلى الحق ، ويحرص على هدايتهم إلى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ولكن الله ـ سبحانه ـ يهدئ من روعه ، ويبين له حقيقة هؤلاء البشر ، يسليه بذلك ويصبره إن لم تتحقق آماله فى هداية قومه ، فيقول ـ سبحانه ـ : **﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما**

---

(١) سورة الأعراف . الآية ٦٦ .
(٢) الأعراف . من الآية ٧٥ .
(٣) الأعراف من الآية ٨٨ .
(٤) التفسير الكبير لفخر الدين الرازى جـ ١٤ . ص ١٥٠ ط . دار احياء التراث العربى ـ بيروت .

يفترون﴾ [1] ثم يقول بعد آيات : **﴿وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾** [2] .

* * *

وأبادر فأقول أن هذا الجانب من القرآن الكريم مترامى الأطراف ، ممتد الآفاق لا يتسنى الباحث أن يلمَّ به فى كتاب ، ولا فى عدد من الكتب ، فلا غرو أن يكون القصور طابع هذا البحث ، وأن يكون الإشفاق والتخوف والحذر مشاعر هذا الباحث قبل وأثناء وبعد أن يتم بحثه .

وقد كنت ومازلت وسأظل معتمداً على فضل الله وعونه وتوفيقه ، متقربا إليه ـ سبحانه ـ بإخلاص النية ، وسلامة القلب ، وحب الخير والحق .

هذا ، وقد اطلعت على كتابين كلاهما يحمل عنوان : (الإنسان فى القرآن) ، أحدهما للأستاذ محمود عباس العقاد ، والثانى للدكتور أحمد إبراهيم مهنا .

أما العقاد فقد جعل بحثه كتابين : الأول : الإنسان فى القرآن : والثانى : الإنسان فى مذاهب العلم الحديث ، وقد جاء الكتاب الأول قريباً من ستين صفحة أما الكتاب الثانى فقد استغرق مائة وخمس عشرة صفحة ، أى أن الكتاب الأول الخاص بالإنسان فى القرآن نصف الكتاب الثانى .

وهذا الصنيع يشعر به اتجاه العقاد من أول صفحة من كتابه إذ أنه يريد أن يتحدث عن إنسان القرن العشرين فلا غرو أن يعرض ما

---

(١) سورة الأنعام . الآية ١١٢ .

(٢) سورة الأنعام . الآية ١١٦ .

جاء فى القرآن عن الإنسان ، وما تموج به الدراسات الحديثة ، ثم يحدد موضوعه أكثر بما يشعر أن أكثر ما يهمه هو عقيدة إنسان القرآن .

يحدد الاتجاه الأول بقوله فى أول فقرة من فقرات كتابه : (إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين ، ولعل مكانه فى هذا القرن أوفق وأوثق من أمكنته فى كثير من القرون الماضية ؛ لأن القرون الماضية لم تلجىء الإنسان إلى البحث عن مكانه فى الوجود كله . وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماجماعةعاعة ققة ا ةة التلالتى يعيش فيها من ذلك النوع . وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمى إليها ، كما ألجأه إلى ذلك كله هذا القرن العشرون ...) .

وهذا الذى قاله الأستاذ العقاد من اضطرار الإنسان إلى البحث عن مكانه فى الوجود كله ، وعن مكانه بين الخلائق الحية فى هذا القرن العشرين ـ هو أحد الأسباب التى دفعتنى إلى هذا البحث الذى أقدمه لإنسان القرن العشرين ولكل إنسان يجىء بعد هذا الإنسان .

ويحدد العقاد إتجاهه الثانى بقوله : (إن القرن العشرين منذ مطلعه يعرض العقيدة بعد العقيدة على الإنسان ، ولا نعلم أنه عرض عليها حتى اليوم قديماً معاداً ، أو جديداً مبتدعاً هو أوفق من عقيدة القرآن ، وأوفق ما فيها أنها غنية عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الخلق ، وثبتت معهم وحدها فى كل معترك زبون ، يوم خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس)[1] .

(١) ص ٨ .

وهذان النصان يفسران لنا اقتصار العقاد على جانب محدود من جوانب حديث القرآن عن الإنسان فنراه يعنى كثيراً بما يتصل بمسئولية الإنسان ، الكائن المكلف ، والتكليف والحرية ، وهذه ثلاثة فصول من كتاب يتضمن سبعة فصول ، بل أن بعض هذه الفصول الأخرى تشير فيما تشير إليه إلى ما تضمنته الفصول الثلاثة .

ويتكلم عن حقيقة الإنسان وأنه روح وجسد ، ويرى ـ كما يرى غيره من السابقين واللاحقين ـ أنه لا ينبغى أن يطغى أحدهما على الآخر ، وأن القرآن أحل الطيبات ، ودعا إلى السعى فى سبيل تحصيل العيش ، كما يتحدث عن خلق آدم ويصل من قصته إلى بعض المسلمات العقلية .

ويبقى بعد ذلك موضوع الإنسان فى القرآن رحيب الساحة ممتد الآفاق .

وأما الدكتور مهنا فقد كان بحثه أرحب ، وإن لم يعمد إلى التحليل والتعليل والمدركات الفلسفية التى شغلت جلّ بحث العقاد .

جمع الدكتور مهنا الآيات التى غلب على ظنه أنها وحدات متكاملة ، وأنها تمثل جماع قول القرآن فى الإنسان ثم بوبها إلى موضوعات جزئية فرعية : خلق الإنسان ـ طبيعته ـ وضعه بين المخلوقات ـ الغاية من خلقه ـ نهايته ـ أنواعه بالنسبة للعقيدة ـ الإيمان والمؤمنون ـ العلاقات الإنسانية فى القرآن ـ أنبياء الله ورسله ـ الرسول محمد فى القرآن ـ طريقه القرآن فى الدعوة والاقناع ـ المرأة فى القرآن .

وكلها ـ كما نرى ـ موضوعات ذوات بال ، ولكنها مع ذلك لم تستوف كل الجوانب التى عالجها القرآن فيما يتصل بالإنسان .

ومن الحق أن كلًّا من الباحثين أجاد وأفاد ، ولكن ـ كما قلت ـ فى هذه المقدمة أن الجانب الإنسانى فى القرآن مترامى الأطراف ، ممتد الآفاق لا يتسنى لباحث أن يُلِمَّ به فى كتاب ، ولا فى عدد من الكتب .

من هنا ـ ولأسباب أخر ـ رأيت أن أشارك فى هذا الموضوع ، ولكن على طريقة أخرى ، وأسلوب آخر ، وفى موضوعات غير تلك التى عرض لها المؤلفان الفاضلان ، وربما اتحد موضوع ولكن تختلف طريقة تناوله ، كما أنه من الطبيعى أن تلتقى بعض الأفكار الجزئية مع أفكار أحدها أو معهما كليهما ، ولكن هذا الالتقاء لم يكن قصداً ، وإنما دفعت إليه طبيعة البحث .

والله المستعان أن يهيىء لنا من أمرنا رشدا ، وأن يوفق هذا البحث المتواضع أن يلمَّ بأطراف من هذا الموضوع ، وأن يجيد عرضها .

وعلى الله قصد السبيل ، وهو نعم المولى ونعم النَّصير .

د. على محمد حسن العماري
مكة المكرمة ـ جامعة أم القرى

الباب الأول

الفصل الأول

أحسن الحديث

﴿الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ـ مثانى ـ تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربَّهم ثمَّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هادٍ﴾ [1].

لعل ما ورد فى هذه الآية الكريمة من أجمع ما وُصف به القرآن الكريم ، ومن أروع ما حُدِّث به عنه ، ومن أدق ما أبان عن صفاته وسماته .

ومن جليل ما وصف به تأثيره البالغ فى قلوب بعض بنى الإنسان ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب .

القرآن كتاب الله تعالى ، هو الذى نزله على عبده ورسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو ـ وحده ـ القادر على تنزيله ، فهو الله الذى لا يعجزه شىء ، ولا يتعاظم قدرته أمر ، ولا تقف دون إرادته إرادة .

ومن شأن كل عاقل يعرف للعقل قدره ، وللحق سموَّه ، وللأنصاف مكانته أن يؤمن بأن هذا القرآن ليس إلّا وحياً من الله لرسوله ، وأنه من الرفعة والسموّ ، ومن علوّ القدر ، ونبل المقاصد بالمكان الذى يعجز لغات البشر عن كشف دقائقه ، وجلاء حقائقه ، إلا بتوفيق من الله وعون ، وأن أهل العلم ، وذوى الفطن فى كل عصر لا يزالون ـ بما وهبهم الله ما أنار بصائرهم ـ يطلعون

---

(١) سورة الزمر ــ الآية ٢٣ .

منه على كل جديد ، ويستخرجون من كنوزه ما تقف الأفهام دونه حسرى كليلة .

القرآن «أحسن الحديث» . فيه الروعة والجلال ، وفيه الجمال والكمال ، وفى ألفاظه الرقة والعذوبة ، والجزالة والقوة ، وفى أساليبه الحلاوة والطلاوة[1] والنصاعة والسلاسة ، وفى معانيه البديع الرائع ، والشريف البارع ، والمعجز الأبىّ ، والعزيز العصىّ ، وفيها جلال الحق ، وسراوة[2] العلم ، ومجادة الصدق : **﴿الله لا إله إلّا هو ليجمعنَّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً﴾**[3] .

والقرآن كتاب متشابه فى أغراضه ومقاصده ، وفى أحكامه وتشريعاته ، وفى أخلاقه وفضائله ، وفى أنبائه وقصصه ، لا تناقص ولا تدافع ، ولا اختلاف ولا اضطراب ، ولا مجافاة للفطرة ، ولا خروج عن سنن الله فى أكوانه .

وهو متشابه فى بلاغته وفصاحته ، لم يشب بيانه غموض ، ولا عاب لفظه وهن ، ولا غضَّ من معانيه نقص أو خلل أو قصور ، بل كله فى أعلى درج البلاغة وأسمى منازل الفصاحة : وأرفع روائع البيان .

ونقاد الأدب مجمعون على أن أثر أى أديب : شاعر أو كاتب أو قاص أو خطيب لا يكون على مستوى واحد من البلاغة ، ولا على نسق واحد من الصحة ، لا سيما إذا طالت مادته ، أو اختلفت أزمنته ، أو تعددت أغراضه ، وأن أىّ بليغ أو حكيم لا يأمن أن

---

(١) الطلاوة ـ مثلثة الطاء : الحسن والبهجة والقبول .

(٢) السراوة : الشرف .

(٣) سورة النساء ـ الآية ٨٧ .

يناقض نفسه ، أو يضطرب رأيه ، ومن هنا قال بعض نقاد العرب أن الشاعر لا يعيبه أن يأتى بالمعنى ونقيضه ، والرأى وضده ، وأن يصور عاطفته اليوم بغير ما صورها به أمس ؛ لأنه إنما يعبر عن واقعه ، والواقع كثيراً ما يتغير ، ويصور مشاعره والمشاعر كثيراً ما تتناقض ، ومن هنا ــ أيضاً ــ قال نقاد آخرون أن الشاعر من يجمع بين الدرة والحصاة .

ويؤيد هذا الذى يراه النقاد واقع الآداب على اختلاف اللغات والبيئات ، وتباين الأزمنة والأمكنة .

فإذا ما نظرت فى رسائل بليغ ، أو قصائد شاعر ، أو روايات قصاص بيَّن لك النظر الواعى ، والحس الناقد المرهف ما فى هذه الآثار من اختلاف فى الصياغة أو تناقض فى الآراء ، أو تدافع فى الأفكار ، أو تباين فى تصوير العواطف والأحاسيس .

بل الرسالة الواحدة إذا طالت ، والقصيدة الفذة إذا امتد بها نفس الشاعر ، والخطبة المحبرة إذا أطنب فيها الخطيب . فى كل ذلك تحسّ التباين بين أجزاء الأثر الأدبى ، لا ينكر ذلك إلّا مكابر ، ولا يدفعه إلّا متعنت ، ولا يخفى إلّا على ذى ذوق مريض .

وقديماً قال الشاعر العربى ، الناقد المؤلف (العماد الأصفهانى) : (أنى رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً فى يومه إلّا قال فى غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر) .

* * *

أما القرآن الكريم فمع أن نزوله امتد على مدى ثلاث وعشرين سنة ، ومع أنه بلغ هذا القدر الذى نعرفه ، ومع تعدد أغراضه

ومقاصده ـ مع كل ذلك سلم من الاختلاف فى البيان ، ومن التناقض فى الأحكام ، وكل كلمة منه قارَّة فى مكانها اللائق بها ، فلو أراد أعلم الناس باللغة ، وأعلاها منزلة فى البلاغة ، وأخبرهم بما يناسب المخاطبين من ألوان الكلام ، لو أراد هذا أن يرفع كلمة قرآنية من موقعها ، ثم أدار لسان العرب على أن يضع مكانها كلمة أخرى يتسق معها الكلام لم يستطع [1] ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : **﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾** [2] .

قال جار الله الزمخشرى فى تفسيره (الكشاف) فى بيان المراد من هذه الآية الكريمة : (لكان الكثير منه مختلفاً متناقضاً ، قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه ، فكان بعضه بالغاً حد الاعجاز ، وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته ، وبعضه أخباراً بغيب قد وافق المخبر عنه ، وبعضه أخباراً مخالفاً للمخبر عنه ، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعانى ، وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم ، فلما تجاوب كله بلاغة معجزة ، فائقة لقوى البلغاء ، وتناصر صحة معانٍ ، وصدق أخبار علم أنه ليس إلّا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره ، عالم بما لا يعلمه سواه) .

وكذلك نجد البلاغة والفصاحة فى كل وجه من وجوه الكلام ، فالقضايا التى تناولها القرآن كثيرة ، ومع اختلافها لم يتفاوت عجيب نظمه ، وبديع تأليفه مع أننا ـ كما يقول أبوبكر الباقلانى ـ : (نجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف

---

(١) الفكرة الأخيرة مأخوذة من كلام (ابن عطية) المفسر الأندلسى المعروف .
(٢) سورة النساء ـ الآية ٨٢ .

على حسب اختلاف هذه الأمور ، فمن الشعراء من يجود فى المدح دون الهجو ، ومنهم من يبرز فى الهجو دون المدح .... ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت فى شعره على حسب الأحوال التى يتصرف فيها ، فيأتى بالغاية فى البراعة فى معنى فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ، ووقف دونه ، وبان الاختلاف على شعره) [1] .

قلت : وهذا أحد البراهين الكثيرة على أن القرآن الكريم نزل من السماء ، وأنه ليس من صنع البشر.

والله ـ سبحانه ـ نزل القرآن «مثانى» ثنيت وكررت أوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، وزواجره ومواعظه ، وأنباؤه وقصصه ، وهذا ما يؤكد المعانى فى أنفس المخاطبين بها ، وهو تذكير لهم كلما فترت عزائمهم عن أداء واجباتهم الدينية ، وتنبيه لهم من الغفلة ، وحفز لهممهم على الاستجابة لداعى الهدى ، واستمرار النفور من دواعى الغىّ والضلال .

ثم فى هذا التكرار لطائف أخرى . منها إقامة الحجة على العرب ، وتبكيتهم على عجزهم أن يعارضوا القرآن ، فلا يستطيعون أن يقولوا أن التعبير عن المعنى ثانياً بعد أن عبر عنه أولاً لا تجىء صياغته فى قوة صياغته الأولى ، وهذا هو القرآن قد أعاد التعبير عن كثير من المعانى فما ظهر فيه ضعف ولا تكلف ولا قصور .

* * *

وأخرى . ذلك أن الكاتب أو الشاعر أو الخطيب حين يعيد أحدهم معنى سبق أن قال فيه يظهر فى أسلوبه أثر الصنعة ، وتبعث معانيه على الملل .

---

(١) ص ٣٦ ، ٣٧ تحقيق الأستاذ سيد صقر ـ الطبعة الرابعة .

والقرآن الكريم على الضد من ذلك ؛ فقد كررت فيه قصص الأنبياء ، وبعضها بلغ حداً من التكرار يُظن معه أن الأسلوب سيضعف ، أو أن المعانى ستتهافت ، ولكن الآيات جاءت فى كل مرة بالغة حد الاعجاز ، تخلب الألباب ، وتستولى على العقول ، وتثلج صدر كل صاحب ذوق سليم .

وهذا ـ ولا شك ـ وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وبرهان يؤيد البراهين الأخرى على أنه ليس كما يقول مشركو مكة عن النبى ـ ﷺ ـ كما حكى عنهم القرآن : **﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلّا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾** [1] .

يقول فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب) عند تفسيره لقوله تعالى : **﴿وإن كنتم فى ريب ممَّا نزّلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله﴾** [2] . يقول : (وأعلم أنه قد اجتمع فى القرآن وجوه كثيرة تقتضى نقصان فصاحته ، ومع ذلك فإنه فى الفصاحة بلغ النهاية التى لا غاية لها وزاءها ، فدل ذلك على كونه معجزاً) . وبعد أن ذكر الرازى ثلاثة من هذه الوجوه ، قال : (ورابعها : أن كل من قال شعراً فصيحاً فى وصف شىء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثانى فى وصف ذلك الشىء بمنزلة كلامه الأول ، وفى القرآن التكرار الكثير ، ومع ذلك كل واحد منها فى نهاية الفصاحة ، ولم يظهر التفاوت أصلاً) .

---

(١) سورة الفرقان . الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ٢٣ .

وبعد أن وصفت الآية الكريمة القرآن وصفاً ذاتياً بينت أثره فى قلوب المؤمنين به ، وأشارت إلى وقعه على قلوب المعرضين عنه .

فالذين آمنوا بين حالين : تارة تستولى على قلوبهم الخشية من الله تعالى ، والرهبة من جلاله ، والخوف من وعيده فتقشعر جلودهم ، وترتعد فرائضهم ، ويملأ الإشفاق قلوبهم ، حين يتلون القرآن أو يسمعونه : **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربِّهم يتوكلون﴾** [1] .

﴿فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة وممَّا رزقناهم ينفقون﴾ [2] .

ويخبرنا القرآن الكريم أن من النصارى من بكوا عند سماع القرآن فى سورة المائدة : **﴿لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنَّهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ممَّا عرفوا من الحق يقولون ربَّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾** [3] .

وقد أنكر الله ــ سبحانه ــ على كفار قريش أنهم لا يتلقون القرآن بما ينبغى أن يتلقى به من الوقار والخشوع والبكاء : **﴿أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون﴾** [4] .

---

(١) سورة الأنفال ــ الآية ٢ .

(٢) الحج . من الآية ٣٤ ، والآية ٣٥ . والمخبتون : الخاشعون .

(٣) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ .

(٤) سورة النجم . الآيتان ٥٩ ، ٦٠ .

ذلك أن من مقتضى الفطرة السليمة ، والقلب الخالص من الشوائب ، والنفس الموقنة بجلال الله الخوف عندما تُستحْضَر هيبتهُ ، والبكاء عندما تتلى آياته ، ومن هنا وصف الحسن البصرى ـ وهو أحد العلماء الزهاد ـ بعض حملة القرآن بالخشوع والوقار والبكاء ، فقد جعل حملة القرآن ثلاثة نفر ، قال فى الفريق الثالث منهم : (ورجل قرأ القرآن فوضع دواءه على داء قلبه ، فسهر ليله ، وهملت عيناه ، وتسربل الخشوع ، وارتدى الوقار ، واستشعر الحزن ، ووالله لهذا الضرب من حملة القرآن أقل من الكبريت الأحمر ، بهم يسقى الله الغيث ، وينزل النصر ، ويدفع الأعداء) .

* * *

والناظر فى سيرة نبينا ـ ﷺ ـ وأخبار أصحابه وتابعيهم والصالحين من سلفنا يروعه ما كان للقرآن من تأثير بالغ على نفوسهم ، ومن أثر عميق فى قلوبهم ، ومن سيطرة كاملة على حياتهم .

وقد ذكر الإمام الغزالى فى (أحياء علوم الدين) جملة صالحة من أحوال الصحابة والتابعين والصالحين فى شدة الخوف عند سماع القرآن أو تلاوته ، ونكتفى هنا ببعض تلك الأخبار :

ذكر أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قرأ يوماً : ﴿**إذا الشمس كوِّرت**﴾ فلما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿**وإذا الصُّحف نُشرت**﴾ خر مغشياً عليه .

وقال صالح المرى : قرأت على رجل من المتعبدين : ﴿**يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا**﴾[1] . فصعق ، ثم أفاق فقال : زدنى يا صالح فإنى أجد

(١) الأحزاب . الآية ٦٦ .

غماً ، فقرأت : **﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾** [1] . فخرَّ ميتاً .

وقرأ مضر القارىء يوماً : **﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنَّا كنَّا نستنسخُ ما كنتم تعملون﴾** [2] . فبكى عبدالواحد بن يزيد حتى غُشى عليه ، فلما أفاق قال : وعزتك لا عصيتك جهدى أبداً ، فأعنى بتوفيق على طاعتك .

وصدق الله العظيم : **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾** [3] .

* * *

هذه حالة من حالتى المؤمنين بالله الذين يخشونه ، ولا يخشون أحداً إلّا الله .

أما الحالة الأخرى فهى السكينة والطمأنينة ، واستقرار الأنفس ، واستبشار القلوب حين يذكرون رحمة الله التى وسعت كل شىء ، ونعمه التى عمت كل الكائنات ، وأفضاله التى غمر بها الإنس والجن ، فإن جمال الله يتجلى لهم فيستبشرون : **﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾** . **﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾** [4] .

ولا شك أن أثر القرآن فى قلوب المؤمنين ، بل فى قلوب المنكرين له أحياناً ، أحد البراهين الحاسمة على أنه من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ أُنزِل .

قال أبوسليمان الخطابى أحد علماء القرن الرابع الهجرى (٣١٩ ـ

---

(١) سورة الحج ـ الآية ٢٢ .
(٢) سورة الجاثية ـ الآية ٢٩ .
(٣) سورة الحشر . الآية ٢١ .
(٤) سورة الرعد ـ الآية ٢٨ .

٣٨٨هـ) وهو يتحدث عن إعجاز القرآن : (قلت : فى إعجاز القرآن وجه آخر ، ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاحة ، قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها ، وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدو للرسول - ﷺ - من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ، ويدخلوا فى دينه ، وصارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم إيماناً)[1] .

﴿ **ذلك هـدى الله يهدى به من يشاء**﴾ . وتلك هى الوظيفة الأولى للقرآن الكريم ، هداية وإرشاد وتبيان ، هداية لمن يشاء الله هدايتهم ، وويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله .

﴿**وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون**﴾[2] .

---

(١) بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن) ص ٦٤ .
(٢) سورة التوبة . الآيتان ١٢٤ ، ١٢٥ .

لقد علم الله ـ سبحانه ـ فى الأزل من يرشده عقله وفطرته إلى الإيمان فيهتدى ، ومن يعمى عن الحق فيضل ، وقد أوضح لكلٍّ طريق الخير والشر ، وأبان سبيلى الهدى والضلال ، وأودع فى كل نفس وجداناً وعقلاً وقدرة وإرادة ، فمن علم ـ سبحانه ـ أنه يختار سبيل الهدى بمحض إرادته أعانه عليه ، ويسر له سلوكه ، ومن علم أنه يؤثر العمى على الهدى ، والكفر على الإيمان أضله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟!

وهكذا كان القرآن الكريم هدى وموعظة للمتقين ، ووبالاً وخزياً على الكافرين .

الفصل الثاني

وصف القرآن من آياته

صلة هذه الأوصاف بالإنسان

وقد وضح لنا من النظر فى الآية الكريمة التى شرحناها أن وصف القرآن للقرآن جاء على نوعين :

الأول : صفات تبين ذاتية القرآن وحقيقته .

الثانى : أوصاف تبين الأسرار التى من أجلها أنزل (وكلها تتصل بالإنسان) .

فما جاء من النوع الأول وصف القرآن بأنه عربى مبين ، وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿**وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه ليبين لهم**﴾[1] ، ومحمد ـ ﷺ ـ من أوسط العرب داراً ، ومن أكرمهم عشيرة : ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم**﴾[2] .

وقد تردد وصف القرآن بأنه عربى فى بعض سوره مع اختلاف أزمنة نزولها :﴿**إنّا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**﴾[3]﴿**وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً**﴾[4] . ﴿**وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين**﴾[5] . إلى غير ذلك من الآيات التى ورد فيها وصف القرآن بأنه عربى .

---

(١) سورة إبراهيم . الآية ٤ .

(٢) سورة التوبة . الآية ١٢٨ .

(٣) سورة يوسف الآية ٢ .

(٤) سورة طه ـــ الآية ١١٣ .

(٥) سورة الشعراء . الايات : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

وإنما أنزل القرآن باللغة العربية للسر الذى جاء فى سورة إبراهيم ﴿ليبين لهم﴾ .

ولسر آخر هو أن يصح له تحديهم ، ومطالبتهم أن يعارضوه ، وأن يجيئوا إن كانوا قادرين ولو بمثل أقصر سورة منه ، ولو أنه نزل بلغة أخرى لأعطاهم العذر فى أن يقولوا إنك تحديتنا بغير لغتنا ، فتسقط حجته .

وقد تعنت كفار قريش ـ كعادتهم ـ فقالوا : هلا نزل القرآن بلغة العجم ، فنزل قوله تعالى : **﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلت آياته أأعجمى وعربى﴾** [1] .

لقالوا : هلا بينت آياته بلغتنا العربية حتى نفهمه ، وكيف يجىء قرآن أعجمى من رسول عربى ، يخاطب به قومه من العرب ؟

فكان مما يوافق العقل والمنطق ، ويعين الرسول على أداء ما كلف بتبليغه أن ينزل القرآن بلغة قومه العرب . ينذرهم به ، وينذر كل من يمكن أن تبلغه دعوته من الإنس والجن .

ومن الأوصاف التى ترددت فى القرآن كثيراً أنه نزل بالحق : **﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾** [2] . **﴿نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه﴾** [3] **﴿قُلْ نزّله روح القدس من ربك بالحق﴾** [4] .

إلى كثير من مثل هذه الآيات ..

والحق هو سر الحياة ، وقوام الوجود ، وطَلِبة العقول ، عليه قامت السموات والأرض ، وبه تصلح شئون الكائنات ، فلا جرم كان كتاب الإنسانية نازلاً بالحق ، مشتملاً عليه ، مقرراً له ، ولا

---

(١) سورة فصلت ــ الآية ٤٤ .
(٢) سورة الاسراء ــ الآية ١٠٥ .
(٣) سورة آل عمران ــ الآية ٣ .
(٤) سورة النحل ــ الآية ١٠٢ .

جرم أن يتنزّه عن كل شبهة ، وأن يخلص من كل ظن ، وأن يوصف بأنه : ﴿**لا ريب فيه**﴾[1] وبأنه : ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد**﴾[2] .

وها . قد مضت على نزوله أربعة عشر قرناً ، ولا يزال كما كان يوم أنزل ، لم تغير فيه آية ، بل لم تغير فيه كلمة ، بل لم يغير فيه حرف ، بل لم تغير فيه حركة ، وقد قيض الله ـ سبحانه ـ من هذه الأمة الوسط من يتعبدون بحفظه ، ومن يسهرون على حياطته ، ومن يذودون عنه كل حفيظة سوداء ، ويردون عن قدسيته كل حقد أزرق ، تحقيقاً لقوله ـ سبحانه ـ : ﴿**إنَّا نحن نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[3] .

ولخطر الحق ، وعظيم شأنه ، ولما له من أثر بالغ تكررت كلمة الحق فى القرآن أكثر من ثلثمائة مرة .

وقد سمى الإسلام (دين الحق) لأنه قام على البراهين الواضحة ، وآمنت به العقول الراجحة ، ودعا إلى التفكر الواعى فى خلق السموات والأرض ، وفى الأنفس ، وإلى أعمال النظر الصحيح فى الوصول إلى الحقائق ، وأمر أتباعه ألّا يؤمنوا عن تقليد واتباع ، وإنما عن نظر واقتناع ، وبكل هذا نطق القرآن .

وقد بلغ ـ أعزك الله ـ فى زماننا هذا كاتب نشر أبحاثاً فى إحدى المجلات الدينية الكبرى التى تصدر فى القاهرة : بالغ ـ وأحال ـ فنفى أن يكون وجه إعجاز القرآن البلاغة والفصاحة ، أو أى وجه آخر من الوجوه المعروفة ، وزعم أن وجْه إعجاز القرآن هو أنه نزل

(١) البقرة ٢ .
(٢) فصلت ٤٢ .
(٣) الحجر ٩ .

بالحق ، وكأن القرآن تحدى العرب أن يعارضوه بمثل أقصر سورة منه مشتملة على الحق ، مع أن مما تحداهم به أن يأتوا : **﴿بعشر سُورٍ مثله مفتريات﴾** [1] .

وقد وصف القرآن فى القرآن بأنه (مصدق لما بين يديه) أى لما سبقه من الكتب السماوية ، وأنه أمين ورقيب عليها ، وبأنه (كتاب عزيز) يمتنع على البلغاء أن يجيئوا بمثله ، وأنه لا عوج فيه ولا أمت ، وبأنه كتاب كريم : **﴿فلا أُقسم بمواقع النجوم . وإنَّه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . فى كتابٍ مكنون . لا يمسه إلّا المطهرون﴾** [2] . **﴿تنزيل من ربِّ العالمين﴾** [2] .

ووصف القرآن بأن آياته أحكمت وفصلت : **﴿كتابٌ أحكمت آياته ثم فصِّلت من لدن حكيم خبير﴾** [3] . **﴿أفغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مُفصَّلاً﴾** [4] .

ومعنى إحكام آياته نظمها نظماً متقناً ، لا نقص فيها ولا خلل ، وبراءتها من التناقض ، وبلوغها فى الفصاحة والبلاغة والجزالة مبلغاً لا يمكن معه معارضتها .

ومعنى تفصيلها جعلها فصولاً ، حلالاً وحراماً ، ومواعظ وترهيباً ، وأمراً ونهياً ، ووعدا ووعيداً .

وقد نفى الله عزّ وجلّ عن القرآن أن يكون شعر شاعر ، أو قول كاهن ، وكان المشركون قد ادعوا عليه ذلك ، فجاء الرد حاسماً : **﴿فلا أقسم بما تبصرون.وما لا تبصرون.إنَّه لقول رسولٍ كريم.وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون.ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون.تنزيل من رب العالمين﴾** [5] .

---

(1) هود . من الآية ١٣ .
(2) سورة الواقعة ٧٥ ـ ٨١ .
(3) هود ١ .
(4) الأنعام ١١٤ .
(5) الحاقة ٣٨ ـ ٤٣ .

وأما النوع الثانى ، وأريد به الصفات التى تبين الغاية من إنزال القرآن ، والتى تتصل إتصالاً مباشراً بالإنسان ، فمن أولها أنه برهان على صدق الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى دعوى الرسالة : ﴿**يأيُّها النَّاس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً**﴾ [1] . فالقرآن برهان وحجة ، وهو نور مبين .

وقد تعنت كفار قريش ـ كعادتهم ـ فطلبوا من الرسول أن يأتيهم بآية كونية تؤيد صدق رسالته ، كما أيدت الآيات الكونية رسالة موسى وعيسى وصالح وغيرهم من الرسل : ﴿**وقالوا لن نؤمن لك حتَّى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً.أو تكون لك جنَّة من نخيل وعنب فتفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً.أو تسقط السَّماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا.أو يكون لك بيت من زخرف أو ترق فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قُل سبحان ربى هل كنت إلَّا بشراً رسولاً**﴾ [2] .

وتوالى منهم طلب الآيات ، وتوالى الرد عليهم ، وكان مما أفحمهم ما جاء فى قوله تعالى : ﴿**وقالوا لو لا أُنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين.أو لم يكفهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إنَّ فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون**﴾ [3] .

فهم قد اقترحوا الآيات ـ كما هو دأبهم ـ ، والله ـ سبحانه ـ يأمر رسوله بأن يجيبهم أن الذى يملك إنزال الآيات هو الله وحده ، وأن إنزالها مرهون بمشيئته سبحانه ، وأنى لا أملك من ذلك شيئاً ، وإنما جئتكم بشيراً ونذيراً ، والله قادر على أن ينزل آية ، ولكنَّ فى

(١) النساء ١٧٤ .
(٢) سورة الاسراء ٩٠ ـ ٩٣ .
(٣) العنكبوت ٥٠ ، ٥١ .

هذا القرآن الكفاية وما فوق الكفاية ، ألم يعجزهم ببلاغته وفصاحته ؟ ألم يرعهم ما فيه من العلوم والمعارف اللاتى لم يكن لهم بها عهد ؟ . ألم يبهرهم أن الذى بلغ هذا القرآن رجل منهم يعلمون أنه لم ينشأ فى بيئة علمية ، ولم يكن يقرأ الكتب ؟ **﴿وما كنت تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾** [1] .

ثانى هذه الأوصاف أن القرآن : **﴿ذكر للعالمين﴾** . وقد ورد هذا الوصف فى سورة (القلم) ، وهى ثانى سورة أنزلت من القرآن : **﴿وإن يكادُ الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنَّه لمجنون.وما هو إلّا ذكر للعالمين﴾** [2] .

ملك الغيظ والحقد قلوب مشركى مكة حين تلا عليهم النبى القرآن ، واستعرت نفوسهم بنار العداوة ، وامتلأت عيونهم بالشر والبغضاء فأخذوا ينظرون إليه نظرات الحاقد المغيظ ، لا تكاد أعينهم تتحول عنه ، وكأنما وثبت قلوبهم فاستقرت فى عيونهم ، فكادوا بهذه النظرات السود أن يزلوا قدم الرسول عن موضعها ، وهذا التعبير القرآنى من أدق وأبلغ ما تصور به العداوة الحاقدة ، والخصومة المغيظة .

ولم يكتفوا بهذا النظر الشزْر ، بل سلقته ألسنتهم الحداد بما يعلمون كل العلم أنه منه براء : **﴿ويقولون إنَّه لمجنون﴾** .

وقد وردَ عليهم القرآن الكريم بما لم يكونوا يتوقعونه ، فالقرآن لم ينزل لهم وحدهم وإنما هو ذكر للناس كافة ، فهو كتاب الاسلام ، وليس هذا الدين لجنس دون جنس ، ولا أمة دون أمة ، وإنما هو **﴿للعالمين﴾** .

---

(١) العنكبوت ، الآية ٤٨ . (٢) القلم ، الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

وقد ورد هذا الوصف فى سورة أخرى نزلت فى وقت قريب من نزول سورة القلم ، هى سورة (التكوير) التى كانت السابعة فى النزول : ﴿**إن هو إلّا ذكر للعالمين**﴾ .

ومعنى هذا أن القرآن أكد منذ الأيام الأولى للدعوة أنه خطاب لجميع الأمم ، ولكل الأفراد . يذكرهم بما غفلوا عنه ، وهو مستقر فى زوايا نفوسهم بوجود إله واحد خالق رازق وبما استقر فى فطرهم من معرفة للخير والشر ، وتمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وفصل بين الحسن والقبيح ، ثم يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، مخلصين له الدين ، وإلى إقامة شرعه ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

تردد هذا الوصف كثيراً فى القرآن الكريم ، مرة بلفظ (الذكر) ، وأخرى بلفظ (ذكرى) ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلّا ذكرى للعالمين**﴾[1] . وجاءت الكلمتان بمعانٍ أخرى ، ولكنها جميعاً تنبه الغافلين ، وتنفع المؤمنين ، وكأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو أعلم بمقاصد كلامه أراد من تكرار هذا المعنى فى القرآن أن يكون الناس على ذكر دائم ، وألا تشغلهم الحياة الدنيا ، ولا تلهيهم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله .

كذلك جاء المعنى بلفظ (التذكرة) فى قوله تعالى : ﴿**كلا إنها تذكرة.فمن شاء ذكره.فى صحف مكرمة.مرفوعة مطهرة.بأيدى سفرة. كرام بررة**﴾[2] .

والقرآن (هدى) يهدى به من اتبع سبيله ، هدى للمتقين ، فهم الذين ينتفعون بهدايته ، وهو ـ أيضاً ـ هدى للناس ، لمن شاء

(١) سورة الأنعام ـ الآية ٩٠ .
(٢) سورة (عبس) ـ الآيات ١١ ـ ١٦ .

أن يستقيم : ﴿**شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان**﴾ [1] .

والقرآن شفاء لما فى الصدور ، قال تعالى : ﴿**يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصّدور وهدى ورحمة للمؤمنين**﴾ [2] . ﴿**قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء**﴾ [3] . ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾ [4] .

ولندع للفخر الرازى الحديث عن هذا الوصف من أوصاف القرآن الكريم (شفاء) .

قال عند تفسيره لهذه الآية الأخيرة : «واعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية ، وشفاء ـ أيضاً ـ من الأمراض الجسمانية ، أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر ؛ وذلك لأن الأمراض الرّوحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة ، والأخلاق المذمومة .

أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فساداً الاعتقادات الفاسدة فى الألهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر ، والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق فى هذه المطالب ، وإبطال المذاهب الباطلة فيها ، ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ فى هذه المطالب ، والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما فى هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة ، لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحانى .

وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها ، وتعريف

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥.

(٢) سورة يونس الآية ٥٧ .

(٣) سورة فصلت من الآية ٤٤ .

(٤) سورة الاسراء الآية ٨٢ .

ما فيها من المفاسد ، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة ، والأعمال المحمودة ، فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض .

فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية .

وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض .

ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة ، وأصحاب الطِّلَّسْمات بأن لقراءة الرقى المجهولة ، والعزائم التى لا يفهم منها شىء آثاراً عظيمة فى تحصيل المنافع ، ودفع المفاسد ، فلأن تكون قراءة القرآن العظيم ، المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه ، وتعظيم الملائكة المقربين ، وتحقير المردة والشياطين . سبباً لحصول النفع فى الدين والدنيا كان أولى .

ويتأكد ما ذكرناه بما روى أن النبى ـ ﷺ ـ قال : **(مَنْ لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى)** .

* * *

هذا وقد وصف الله تعالى القرآن بأوصاف أخر من هذا النوع : فهو آيات بينات ، وهو تبيان لكل شىء وهو النور الذى أنزله سبحانه ، وهو مبارك لما فيه من خير للإنسان ، وهو مخرج للناس من الظلمات إلى النور ، وهو الفرقان فرق الله به بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، والخير والشر ، والطيب والخبيث **﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾**[1] .

وسمَّاه سبحانه (الروح) ؛ لأنه سبب حياة الأرواح : **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا**

---

(١) سورة الفرقان ـ الآية ١ .

الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم.صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾[1] .

(۱) سورة الشورى الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

الفصل الثالث

وصف النبيّ للقــرآن

روبت عن النبي ـ ﷺ ـ أحاديث كثيرة فى وصف القرآن الكريم من أجملها هذا الحديث :

روى أبومحمد الدارمي السمرقندى فى مسنده عن الحارث عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وخرجه الترمذى ، قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : **ستكون فتن كقطع الليل المظلم . قلت : يا رسل الله . وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضلّه الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين . والذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم . وهو الذى لا تزيغ به الأهواء . ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء . ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . وهو الذى لم تنته الجنّ إذْ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآناً عجبا .**

من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق . ومن حكم به عدل . ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم) (١)

---

(١) لا تزيغ به الأهواء : لا تتغلب عليه فتميل به عن طريق الحق ، وتحيد بتعاليمه عن وجه الصواب . لا تلتبس به الألسنة : التبس به أى خولط فى رأيه ، والألسنة : اللغات . والمعنى أنه لا يمكن لأى متكلم مهما كان بليغاً أن يختلط كلامه بالقرآن ؛ لأنه جنس متميز عن سائر كلام البشر . لا يخلق على كثرة الرد : الثوب الخلق : البالى . أى . مهما ردّد الناس القرآن فسيظل جديداً ، وكأنك وقد قرأت الآية آلاف المرات تقرؤها لأول مرة .

شهادة بعض المشركين للقرآن

كان كفار مكة على يقين من صدق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما يبلغه عن ربه ، وكيف يخفى صدقه ، وحجته التى جاءها بها قاهرة ، وسيرته فيهم نقية طاهرة ؟!

فقد قضى بينهم من عمره المبارك أربعين سنة ، ما جربوا عليه كذباً ، ولا عرفوه إلّا أميناً حتى لقبوه الصادق الأمين ، فما بال عقولهم الراجحة قد طاشت ، وحكمتهم الوقور قد عادت سفهاً وجهلاً ؟!

إن الكبرياء عصفت برءوسهم ، والحفاظ على السلطان والجاه طيّش عقولهم ، والإبقاء على دين الآباء والأجداد خرَّب ضمائرهم ، فأنكروا الحق وهم به جدُّ عارفين ، وتنكّروا لأنبل رجل فيهم وهم على يقين من خلقه ، لو كذب على الناس جميعاً ما كذبهم ، فالرائد لا يكذب أهله ، هم يعرفون أنه يقرى الضيف ، ويحمل الكلَّ ، ويعين على نوائب الدهر ، ولكن حق عليهم القول ، وسبقت فى علم الله شقوتهم .

وعلى الرغم من جحودهم ، وعدائهم للدعوة وصاحبها كانت تمر اللحظة ببعض سادتهم ، تصفو فيها نفسه ، وتغلب عليه فطرته ، فيقول فى القرآن كلمة الحق ، ويصفه وصف الجهبذ الخبير بسرىّ الكلام ، العارف بأسرار البلاغة ، الحفىّ بأساليب البيان .

روى ابن جرير الطبرى المفسر بسنده عن عكرمة بن أبى جهل أنه قال : جاء الوليد بن المغيرة إلى النبى ـ ﷺ ـ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فقال له : أى عم . إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً قال : لِمَ ؟ ، قال :

يعطونكه . فإنك أتيت محمدا تتعرض لما قبله . قال : قد علمت قريش أنى أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال . وأنك كاره له . قال : فماذا أقول فيه ؟ . فوالله ما منكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجنّ ، والله ما يشبه الذى يقوله شيئاً من هذا . والله . إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يُعلى .

قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه قال : فدعنى حتى أفكر فيه ... فلما فكّر قال : إن هذا إلّا سحر يؤثره عن غيره ، فنزل قوله تعالى : ﴿**ذرنى ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهدّت له تمهيدا * ثم يطمع أن أزيد * كلّا إنّه كان لآياتنا عنيدا * سأرهقه صعودا * إنّه فكّر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قُتل كيف قدر * ثم نظر ثم عبس وبسر * ثمَّ أدبر واستكبر * فقال إنْ هو إلّا سحر يؤثر**﴾[1] .

* * *

وروى محمد بن كعب القرظي قال : حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً حليماً ـ قال يوماً : ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، فأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها ، فنعطيه أيُّها شاء ؟ وذلك حين أسلم حمزة ـ رضى الله عنه ـ ورأوا أصحاب النبى ـ ﷺ ـ يكثرون ، قالوا : بلى . يا أبا الوليد ، فقام إليه ، وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ جالس فى المسجد وحده ، فقال : (وذكر الراوى الأمور التى عرضها عتبة على النبى) ، ثم قال : حتى إذا فرغ قال له رسول الله ـ ﷺ ـ : أوقد فرغت ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى . قال : قل . قال : ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم . حم**

(١) سورة المدثر الآيات من ١١ إلى ٢٥ .

تنزيلٌ من الرحمن الرحيم . كتاب فصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾[1] . ثم مضى فيها يقرؤها ، فلما سمعها عتبة أنصت له ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما ، يستمع منه ، حتى انتهى رسول الله ـ ﷺ ـ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : قد سمعت ما سمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس قالوا : ما وراءك ؟ . قال : ورائى أنى سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط ، وما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعونى ، خلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب به فملكه ملككم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك بلسانه ! قال : هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم[2] .

ولكن غلب على الرجل هواه فلم يسمع لصوت ضميره ، ولم يخضع لحكم وجدانه ، ولم يستجب لما هداه عقله ، فسلك نهج صاحبه الوليد بن المغيرة ، وظل يحارب الدعوة وصاحبها حتى قتل مع أخيه وابنه فى موقعة بدر الكبرى ، وكان مصيرهم إلى القليب يتلظى بهم ، ثم يلفظهم إلى جهنم وبئس المصير .

وقد رويت روايات أخرى فى شهادات بعض المشركين للقرآن ، والثناء عليه ، اكتفينا بهاتين الشهادتين الصادرتين عن صنديدين من أكبر سادات العرب .

---

(١) سورة فصلت الآيات من ١ إلى ٤ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

وصف المحدثين للقرآن

ولم يفت المنصفين من عقلاء المفكرين المحدثين أن يصفوا القرآن بما يعتقدون أنه الحق ، ولن نذكر ـ هنا ـ شيئاً مما قاله علماء المسلمين ومفكروهم ، وإنما نثبت بعض ما قاله الذين لا يتهمون بممالأة المسلمين .

وليس عجيباً أن نقرأ كلمات كثيرة منصفة من فلاسفة الغرب وعلمائه ، فما يزال للعقل سلطان ، وللحق أنصار ، ونكتفى هنا بكلمتين :

١ ـ قال هير شقيلد : (وليس للقرآن مثيل فى قوة إقناعه وبلاغته وتركيبه ، وإليه يرجع الفضل فى ازدهار العلوم بكافة نواحيها فى العالم الإسلامى) .

٢ ـ وقال الكاتب الفرنسى ألكس لوازون فى كتابه : (حياة محمد) :

(خلف محمد للعالم كتاباً هو آية البلاغة ، وسجّل الأخلاق ، وهو كتاب مقدس ، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً ، أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية ، فالانسجام تامٌّ بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية) .

* * *

هذا هو القرآن الكريم كما وصفه الله عزّ وجلّ ، وكما وصفه رسول الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وكما وصفه غير المؤمنين .

وهذا هو الإنسان ، يبدو فى كل وصف من الأوصاف أنه المقصود ، وأن هذا القرآن جاء من أجله ، إذ جعله الله ـ سبحانه ـ

خليفته فى الأرض ، فهو ـ عزّ وّجلّ ـ يرسل إليه الرسل ، وينزل عليهم الكتب ليبشروا الإنسان وينذروه ، ويبينوا له طريق الخير والشر ، ويضعوا بين يديه أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة ، و :

﴿كل نفسٍ بما كسبت رهينة﴾[1] .

ومع أن هذه الصورة التى وضحت لنا من ثنايا هذه الأوصاف كافية ، وفوق الكفاية ، لكن لا يعرف القرآن حق المعرفة إلّا من يعيش معه : يتلو آياته ، ويتذوق أساليبه ، ويتفهم أحكامه ، ويدرس قضاياه ، ولن يبلغ الوصف مهما دق وصدق مبلغ التذوق ، ولن تجدى الدراسة والتذوق إلّا إذا أقبل عليها الدارس بعقل المنصف ، وقلب المتطلع إلى الإيمان ، ونفس طرحت الهوى والتقليد والعناد .

---

(١) سورة المدثر . الآية ٣٨ .

الباب الثاني

الفصل الأول

الإنســـان

فى القاموس المحيط : (الانس : البشر ، كالإنسان ، الواحد أنْسِيّ وأَنَسِىّ ج أناسىّ ، وقرأ يحيى بن الحارث : «وأناسى كثيراً»[1] بالتخفيف) ، وأناسية ، وآناس ، والمرأة انسان ، وبالهاء عامية ...

والأنـاسىّ : الناس ... ، والإنسان : الأنملة ، وظل الإنسان .... والمثال يرى فى سواد العين ج أناسىّ ... ، والأنيس : الديك ، والمؤانس ، وكل مأنوس به ... وجارية آنسة : طيبة النّفس ، والأُنس بالضم وبالتحريك ، والأنسة محركة : ضد الوحشة ، وقد أنس به مثلثة النون ... ، وآنسه : ضد أو حشه ، والشيء : أبصره كأنّسه تأنيسا فيهما ، وعلمه ، وأحس به ، والصوت : سمعه .. ، واستأنس : ذهب توحشه ، والوحشىُّ : أحس أنسيا ، والرجل : استأذن ، وتبصر .... وما بالدار أنيس : أى أحد .

---

(١) من قوله تعالى : ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسىّ كثيرا﴾ . الآيتان ٤٨ ، ٤٩ ، من سورة الفرقان .

وفى بصائر ذوى التمييز (عن الإنسان) :

(وهو اسم على فعلان ، وجمعه من حيث اللفظ أناسين ، كسرحان وسراحين ، غير أن الجمع الأصلى غير مستعمل ، وجمعه المعروف ناس وأناسٍ وأَنَس وآنس ، والإنس جمع جنس .

وفى الأناسىّ خلاف ، فقيل : أنسىّ ككرسى وكراسى ، وقيل : الأنس جمع أنسى كروم وورومى ، وزنج وزنجى ، وقيل : الأناسىّ جمع إنسان ، وأصله أناسين ، حذفوا نونه ، وعوضوا عنه ياءاً ، إجتمع ياءان فأدغموا فصار أناسىّ ، والناس تخفيف الأناس ، حذفوا الهمزة طلباً للخفة ، والأنس والأنيس ـ أيضاً ـ : الإنسان .

سُمىّ به لأنه يأنس ، ويؤنس به ، وقيل : للإنسان أُنْسان : أنس بالحق ، وأنس بالخلق ، فروحه تأنس بالحق ، وجسمه يأنس بالخلق ، وقيل : لأن له أنسا بالعقبى ، وأنسا بالدنيا ، وإلى هذا المعنى أشار القائل :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى

وأبحت منى ظاهـرى لجليسى

فالجسم منى للجليس مؤانس

وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

ويقال : ان اشتقاق الإنسان من الأيناس ، وهو الإبصار والعلم والإحساس لوقوفه على الأشياء بطريق العلم ، ووصوله إليها بواسطة الرؤية ، وادراكه لها بوسيلة الحواس .

وقيل : اشتقاقه من النوس بمعنى التحرك ، سمى به لتحركه فى الأمور العظام ، وتصرفه فى الأحوال المختلفة ، وأنواع المصالح .

وقيل : أصل الناس : الناسى ، قال تعالى : **﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾**[1] بالرفع وبالجر ، إشارة إلى أصله : إشارة إلى عهد آدم حيث قال : **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى﴾**[2] ، وقال الشاعر :

لا تنســين تلك العهــود فإنما

سـميت إنســاناً لأنك ناســى

وقال الآخر :

فاغفر فأول ناسٍ أول الناس

وفى المثل : الإنسان عرضة النسيان ، وجُلَسة النسوان ، وقيل : عجباً للإنسان : كيف يفلح بين النسيان والنسوان .

هذان نصان يكمل أحدهما الآخر ، وهما لعالم واحد وهو مجد الدين الفيروز أبادى صاحب القاموس المحيط .

وإنما نقلتهما كاملين على بعض الطول فيهما ليعرف كل قارىء حقيقة هذه الكلمة التى هى أخص الكلمات به ، وكثير منا يجهل هذه المعلومات التى ما كان ينبغى أن يجهلها أحد من بنى الإنسان .

ومن عجب أن من الناس ـ بل كثير منهم ـ من يبحث عن مجاهيل الألفاظ والمعانى ، البعيدة كل البعد عن حياته ، ولا يكاد يفكر يوماً فى هذه الكلمة (الإنسان) وهى ـ كما قلت ـ أخص الكلمات به .

من جهة أخرى لم يكتف الفيروز أبادى ببيان المعانى اللغوية لهذه

---

(١) الآية ١٩٩ من سورة البقرة ، وتمامها : **﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾** . قال محقق الكتاب الشيخ محمد على النجار ـ رحمه الله ـ : (هى قراءة ابن جبير ، كما فى البحر المحيط ٢/١٠٠ ، وهى قراءة شاذة .

(٢) الآية ١١٥ من سورة (طه) ، وتمامها : «ولم نجد له عزماً» .

الكلمة ، بل نقل ما قيل فى سبب إطلاق هذه الكلمة على بنى البشر ، بل استطرد إلى بعض الطرائف الأدبية من شعر ومثل ، وإشارته إلى أن ما يتصل بهذه الكلمة دلالتها على أن الإنسان روح وجسد ، وأن الروح تأنس بالحق والجسد يأنس بالخلق ، وإشارته أيضاً إلى أن من مدلول هذه الكلمة البصر والعلم ، وأن ذلك يعنى أن الحواس هى نوافذ الإدراك ، وأن العلم الذى يتحصل فى ذهن الإنسان إنما مصدره هذه الحواس .

وفى نص القاموس أن المرأة يطلق عليها (إنسان) أما (إنسانة) فكلمة عامية ، ولكن بعض الشعراء تظرف فاستعملها فى قوله :

إنسانة فتانة بدر الدجى منها خجل

كما جاء فى هذا النص أن كلمة (آنسة) معناها الجارية طيبة النفس ، وإذاً فإطلاقها فى الاستعمال الدارج على الفتاة التى لم تتزوج فيه نوع من المجاز .

وزاد فى (البصائر) بعض الجموع كأُنس وآنُس ، كما ذكر الجمع القياسى لإنسان وهو أناسين ، وبين كيف تصرف فيه حتى صار أناسىّ

كلمة الإنسان فى القرآن

تكررت كثيراً فى القرآن الكريم كلمة إنسان ، وكذلك جاءت كلمات : الناس والإنس والبشر وبنى آدم والعباد والعبيد .

وقد كثر ذكر كلمة إنسان فى السور المكية إذ جاءت فى ست وثلاثين سورة ، وربما تكررت فى السورة الواحدة كما نقرؤه فى سورة العلق وفى سورة الزمر فى حين لم تجىء إلّا فى سبع سور من السور المدنية .

أما الوجوه التى وردت عليها فى القرآن الكريم فقد ذكر الفيروز أبادى فى (البصائر) إنها وردت على عشرين وجهاً :

ثم عددها ، وقد حجّر واسعاً إذ راعى ـ فقط ـ أسباب النزول ، ولذلك أكثر من تعداد الأشخاص الذين أريدوا بهذه الكلمة من مثل الوليد بن المغيرة وأبى جهل والنضر إبن الحارث ، ولم يتسع قوله لما هو معروف من أن خصوص السبب لا يمنع من عموم الحكم .

فمثلاً ذكر أن المراد بالإنسان فى قوله تعالى : ﴿**وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه**﴾[1] عياش بن أبى ربيعة ، ولكن كان ينبغى أن يلحق ذلك بقوله إن هذا كان سبب النزول أما الكلمة فأصبحت عامة ، إذ ينطبق ما جاء فيها على كل إنسان أنعم الله عليه فأبطرته النعمة فإذا اسلب الله عنه النعمة يئس وقنط ، أو رجع إلى الله ، فهو يعرف الله فى الشدة وينساه فى الرخاء ذلك أن الملاحظ عند نزول الآية ـ والله أعلم بمراده ـ ليست ذات الرجل فقط ، وإنما الصفة التى هو عليها ، فمتى وجدت الصفة فى إنسان آخر كان داخلاً فى هذا اللفظ الذى ورد فى الآية .

وفى قوله تعالى : ﴿**كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾[2] قال : المراد أبوجهل .

مع أن مما يدخل فى مدلول هذا اللفظ ـ والله أعلم ـ كل فرد من هذا النوع ، بل ربما المراد أن هذا هو شأن الإنسان بعامة إلا من عصم الله .

---

(١) سورة الاسراء ٨٣ وتمامها : ﴿**وإذا مسّه الشر كان يؤوسا**﴾ وفى سورة (فصلت) ـ ٥١ . وتمامها ﴿**وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض**﴾ .

(٢) سورة العلق ـ ٦ ـ ٧ .

على أنه قد يبعد فى بعض ما يذكره ، فمثلاً ذكر أن المراد بالإنسان فى قوله تعالى : **﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾** [1] الوليد بن المغيرة ، قال محقق كتاب (البصائر) : (منقول عن ابن عباس . والجمهور على الجنس بدليل الاستثناء) أى إن قوله تعالى بعد هذه الآية : **﴿إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** يجعل المراد بالإنسان العموم إذ لا يستثنى إلّا من عام ، كما فى قوله تعالى فى سورة (العصر) : **﴿إن الإنسان لفى خسر إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾** فلا يمكن أن يراد هنا إلا الجنس لوجود الإستثناء .

على أن المحقق الفاضل أستاذنا الشيخ محمد على النجار ـ رحمه الله ـ قال كلمة فاصلة فى نهاية هذا الفصل ، فقد علق على قول المؤلف إن المراد بالإنسان فى قوله تعالى : **﴿يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾** [2] النبى ـ ﷺ ـ أى فى دعوة الخلق إلى الحق .

قال المحقق : (إرادة الرسول ـ ﷺ ـ من الإنسان فى الآية بعيد ، ولم أدر له سلفاً فى هذا ، والذى رأيته أن المراد الجنس أو معين من الكفار ، والجنس هو الظاهر بدليل التفصيل بعد) .

يريد ـ أجزل الله له المثوبة ـ وكان عالماً فاضلاً محققاً ورعا ـ أن ما جاء بعد هذه الآية من قوله تعالى : **﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه .. الآية﴾** . **﴿وأما من أوتى كتابه وراء ظهره ... الآية﴾** يجعل المراد بالإنسان فى الآية الأولى هو الجنس ، وقد التزم ـ رحمه الله ـ كعادته الدقة فى التعبير فى قوله : (والجنس هو الظاهر) ، ولم

---

(١) سورة التين ـ ٤ .
(٢) سورة الانشقاق ٦ .

يجعله رأياً حاسماً .

ثم قال : (وليعلم القارىء لهذا الباب وغيره أن المؤلف يريد سبب نزول الآية ، وقد أصبحت الآيات بعدُ عامة فى الإنسان بحسب ما تقتضيه الآية .

وهو يتبع ما يقال دون تمحيص وتحقيق ، وكان خيراً له أن ينأى عن هذه التفاصيل) .

* * *

هذا . وسنعرض بعض الآيات التى ورد فيها ذكر الإنسان ، ونذكر ما قاله العلماء فيها .

وسترد فى أثناء الفصول ـ إن شاء الله ـ بقية الآيات التى ورد فيها لفظ الإنسان عند السياق المناسب ، وفى الفصل الذى هو أملك بها .

الفصل الثاني

البرهـان النفسـى

لم ينزل القرآن ليسجل ضوابط علمية ، أو ليضع نظريات نفسية ، أ ليناقش قضايا فلسفية ، وإنما جاء مرشداً وهادياً إلى صراط الله ، وداعياً إلى الحق والخير ، وإلى أن يعيش الإنسان على هذا الكوكب الأرضى عيشة راضية ، يسودها الخلق الفاضل ، ويسيِّرها العقل الكامل ، ويكملها العلم النافع .

والقرآن معجزة رسول الله محمد بن عبدالله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد اتفقت كلمة جمهور العلماء أنه أعجز العرب ببلاغته وفصاحته ، وأنه بذلك تحداهم ، فالذى تقترن به كلمة الاعجاز هو البلاغة ، فيقال : (الإعجاز البلاغى) ، وهكذا كان يدرك العرب ومن بعدهم قروناً طويلة ، ثم بدا لبعض من يعيشون فى عصرنا هذا أن يقرنوا الاعجاز بأمور أخرى ، فسمعنا وقرأنا : (الاعجاز العلمى للقرآن) و (الإعجاز النفسى) ، و (الإعجاز العددى) ، وهكذا .

* * *

وطال الجدل حول التفسير العلمى للقرآن ، بين مؤيدين ومعارضين ، وأدلى كل فريق بحجج وبراهين تؤيد ما يذهب إليه .

وكانت حجة المانعين أن القرآن ليس مرجعاً علمياً ، فمحاولة ربطه بعلوم الفلك والطب والكيميا والهندسة والذرة لن يزيد من قدسيته .

والعلم يتطور ، وتتغير نظرياته بصفة مستمرة ، خاصة فى السنوات الأخيرة وتفسير القرآن بربطه بالعلوم الحديثة ، ربما يؤدى إلى التعسف فى تفسير الآيات .

ويرد المؤيدون بأن الأبحاث التى ستتم فى هذا الشأن لن تربط الآيات القرآنية إلّا بما تأكد ثبوته من النظريات العلمية .

والأمر كذلك فى محاولات ربط القرآن بمباحث علم النفس الحديث ، وقد شاعت وراجت كلمة (الإعجاز النفسى) .

نعم الذى ينعم النظر فى هذا الكتاب الكريم يتأكد من أنه بنى كل تشريعاته وأحكامه ، وأوامره ونواهيه . وأخلاقه وآدابه على أسس سليمة من سنن الاجتماع ، وأصوله ، وطبائع النفوس وميولها . وحقائق الحياة وفلسفتها .

ولكن لم يكن هذا الجانب داخلاً فى (التحدى) لأنه حينئذ يتحدى العرب بما لا يعرفون أو بما لا يحسنونه ، وقد جاء من بعدهم من يعرفون هذا الجانب ، ومن يحسنونه ، ومع ذلك لم يقل أحد من فقهاء المسلمين ولا من حكمائهم ولا من فلاسفتهم بالإعجاز النفسى .

ولما كان هذا البحث يتعلق بالإنسان فى القرآن ، ولما كانت فى القرآن إشارات كثيرة إلى الطبائع النفسية رأيت ألّا أغفل الحديث عما يسمونه (الإعجاز النفسى) ، ورأيت أن أسميه (البرهان النفسى) ، والبرهان غير الإعجاز ، وقد يكون البرهان خارقاً للعادة كما حدث للنبى - ﷺ - من آيات كونية ، فلا ينبغى أن نسميها (معجزات) لأنه لم يتحدَّ بها ، وإنما هى من البراهين على أنه نبى صادق .

ولا يتبين هذا الذى نحاوله إلّا أن يتجرد باحث أو باحثون

لاستخراج كل ما أشارت إليه آيات القرآن ، بل كلماته ، من طبائع نفسية ، وسنن كونية ، وقضايا فلسفية ، فقد رأيت أن القرآن الكريم يؤثر لفظة على لفظة ، ويضع كلمة مكان كلمة ليشير إلى معنى نفسيّ ، أو أدب اجتماعى ، أو فضيلة خلقية .

ولو جمعت هذه المتفرقات التى تنبه إليها المفسرون وأضيف إليها ما يستنبطه الفاقهون لأدب القرآن وأساليبه لكان لنا كتاب أو كتب تبرز هذا الجانب من أسرار القرآن .

ويكفى أن هذه الأسرار بلغها للناس نبى أمىّ ، نشأ فى بيئة أمية ، تجهل كل الجهل معامل علم النفس ، وتجارب رجال الاجتماع ولكنها تفهم المغزى والمعنى .

ولست أريد فى هذه العجالة أن أستقصى أو أقارب الاستقصاء ، وإنما هو الأنموذج الذى يدل على غيره ، والمثال الذى ينبىء عما وراءه ، والنافذة الصغيرة تطل منها على عالم واسع فسيح .

١ ـ يقول الله تعالى : **﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾** [١] .

ويقول عزّ وجلّ : **﴿ما أصاب من من مصيبة إلّا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم﴾** . [٢]

ويقول تقدست أسماؤه : **﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون**

---

(١) النحل ٩٧ .

(٢) التغابن ١١ .

لقاءنا فى طغيانهم يعمهون﴾[1] .

تؤكد هذه الآيات الكريمة أن الذى يؤمن بلقاء الله ، ويرجو ما عنده ، ويعمل صالحاً يحيا حياة طيبة ، وهذه الكلمة «طيبة» تتضمن كل معانى السعادة والهدوء ، والرضا ، والخير ، والأمن . حياة طيبة ، لا قلق فيها ، ولا يأس ولا سخط إن كانت نعيماً خالصاً فذاك ، وإن كانت فيها المنغصات التى تهول غير المؤمن ، وقد تحول حياتهم أحياناً جحيماً فهى عند المؤمن ، الصادق الإيمان هينة الوقع على نفسه ، لأنه يقابلها بالرضا والتسليم ، رجاء ما عند الله تعالى من حسن الثواب ، بل قد يقوى الإيمان فى بعض النفوس الصافية حتى تعد النقم نعماً ، والشر الذى يصيبها خيراً ، وقد أثر عن بعض العُبَّاد قوله : التهنئة على آجل الثواب خير من التعزية على عاجل المصيبة .

هكذا يعيش المؤمن الصادق الإيمان حياة طيبة ، وهكذا يطمئن قلبه ، وتسكن جوارحه ، ويتقبل كل ما يناله من خير بالشكر ، وما يصيبه من ضر بالصبر ، وكلما ذكر الله تعالى عند السراء ، أو عند الضراء اطمأن قلبه ، وأشرقت نفسه ، وسكنت جوارحه : **﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾**[2] .

وقد يَلفتُ النظر فى آية (التغابن) : **﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾** أن الهداية فيها وقعت على القلب ، وهى الآية الوحيدة فى القرآن التى صُرِّح فيها بالقلب مع فعل الهداية ، فالمعهود أن

---

(١) يونس ١١ .

(٢) الرعد ٢٨

يقع فعل الهداية على الذات :
﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم**﴾[1] . ﴿**من يهدِ الله فهو المهتدى**﴾[2] . ﴿**وهديناه النجدين**﴾[3] . إلى كثير من مثل هذه الآيات الكريمة ، فهداية القلب لها دلالة خاصة في مثل هذا السياق : ﴿**ما أصاب من مصيبة إلّا بإذن الله**﴾ .

فالمرغوب فيه هنا هو أفضل أنواع الهداية وأقواها ، ولذلك صُرّح بلفظ القلب ، وهذا منتهى ما يطمح إليه الحيّ ، أن تعمر السكينة قلبه حيث يدعوه كل ما حوله إلى أن يتمزَّق أسى ، وينصدع حزناً : ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾[4] .

أما من لا يرجو لقاء الله تعالى ، ولا يؤمن أن هناك يوماً آخر يجازى فيه المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسىء على إساءته ، فإنه يظل مضطرب النفس ، حائر اللب ، لأنه ـ ولا شك ـ موقن بالموت ، فهو ـ دائماً ـ يتوقع أن يفارق النعيم الذى هو فيه ، دون أن يكون ـ فى عقيدته ـ وراء الموت نعيم آخر ، وهو يحزن لكل حادث يصيبه ، ولكل خطب يُلم به ، لأن فى كل ذلك تنغيصاً للحياة التى لا بديل لها عنده ، ولأنها آلام ليس وراء تحملها أى نفع ، ويستبد به القلق ، ويفقد سكينة النفس ، ويظل هؤلاء كما أخبر القرآن الكريم : ﴿**فى طغيانهم يعمهون**﴾ ، أى فى عمايتهم يتحيرون ويضطربون ،

(١) يونس . من الآية ٩ .
(٢) سورة الكهف من الآية ١٧ .
(٣) سورة البلد الآية (١٠) .
(٤) سورة الأنعام ـ الآية ٨٢ .

وكثيراً ما يصيب الكافر بالله مرض عضوى من جراء القلق الذى يعانيه ، يجهد الأطباء فى الاهتداء إلى سببه ، ثم يتبين ـ وربما بعد فوات الأوان ـ أن سببه اضطراب نفسى ، نشأ عن فقدانه هدوء القلب الذى يعيشه الدين فى نفوس المؤمنين .

يقول (كارل يونج) وهو من أعظم الأطباء النفسيين فى هذا العصر :

(استشارنى فى خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة ، وعالجت مئات من المرضى ، فلم أجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر ـ أى الخامسة والثلاثين ـ لا ترجع فى أساسها إلى افتقادهم الإيمان ، وخروجهم على تعاليم الدين ، ويصح القول بأن كل واحد من هؤلاء المرضى وقع فريسة المرض لأنه حُرم سكينه النفسى التى يجلبها الدين ـ أى دين ـ ، ولم يبرأ واحد من هؤلاء المرضى إلّا حين استعاد إيمانه ، واستعان بأوامر الدين ونواهيه على مواجهة الحياة) .

فسكينة النفس واطمئنانها من لوازم التدين ، وحيرتها واضطرابها ، والسير على غير هدىً ، وكثير من الأمراض النفسية ، بل العضوية ـ لوازم للذين لا يرجون لقاء الله .

ومن هنا قال غاندى : (بغير الصلاة كان يتحتم علىّ أن أغدو معتوها منذ أمد طويل) .

ومن هنا ـ أيضاً نجد حوادث الانتحار تكثر بين الشعوب التى تُسْلِم قيادها للشهوات والملذات ، وتصبح وتمس ولا سيطرة للدين عليها .

ولعل من المصادفات الغريبة أننى فى هذه اللحظة التى أعد

فيها هذه الكلمة للطبع وقعت عيناى على خبر فى إحدى الصحف يقول : (سجلت المجر رقماً قياسياً أوربياً فى محاولات مواطنيها الانتحار خلال العام الماضى بعد أن ذكرت السلطات المجرية أن نحو خمسة آلاف مواطن مجرى قد انتحروا فى عام ١٩٨٤م فى الوقت الذى حاول فيه خمسة وخمسون ألفاً آخرون الانتحار فى نفس العام)[1] .

وطبيعى أن السبب الأساسى فى ذلك فقد التدين الذى يدفع هؤلاء إلى ادمان المخدرات والخمور ، ثم يحبب إليهم التخلص من الحياة بأيديهم ، وربما كانت النسبة فى البلاد الغربية والشرقية أقل من ذلك بكثير ، ولكنها على أى حال نسب عالية ، وبخاصة فى أمريكا .

هذا فى حين أنه يمر العام ببعض البلاد الإسلامية ولا نسمع بحادث انتحار واحد ، وإذا حدث فى بعض آخر فإنه لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة فى العام ، وربما أقل ، فأين خمسة من ستين ألفاً ؟!

٢ ـ ويتحدث علماء النفس عن ازدواج الشعور الدينى ، وأنه ثبت لهم من التجارب الكثيرة أن شعور المراهق نحو الله شعور مركب من عناصر متناقضة ، الود والعداء ، والأمن والخوف ، ويذكرون فى ذلك اعترافات كثيرة ، منها ـ على سبيل المثال ـ قول مراهق فى سن الثامنة عشرة : (صلتى بالله لا تكون قوية إلّا إذا وقعت فى مأزق ، أو ارتكبت إثماً فأخشى من الله العقاب ، وكذلك أعاهده بينى وبين نفسى ألا أرتكبه مرة ثانية ، وقلما نفذت ذلك العهد)[2] .

---

(١) صحيفة الأهرام القاهرية الصادرة فى ١٩٨٥/٩/١٨م .

(٢) الدكتور مصطفى زيور ـ تطور الشعور الدينى ص ٢٢٤ .

ويذكرون أن من الناس من يرضى عن الله إذا أصابه خير ، فإذا نزلت به نازلة اشتدت حفيظته على القدر الذى يمثل فى سريرته (الله) .

هذا بعض الذى وصل إليه علماء النفس بعد التجارب الكثيرة ، وبعد قرون متطاولة من حياة البشرية ، وهو الذى بلغه النبى الأمىّ ، الذى نشأ فى بيئة أمية لقومه وللناس كافة عن الله تعالى منذ أربعة عشر قرناً .

ولست أريد أن أقارن بين ما جاء فى القرآن الكريم ، وما وصل إليه علماء النفس المحدثون ، ولا أريد أن أجعل من أقوالهم تأييداً لما جاء فى القرآن كما يلجأ إليه بعض الغافلين حين يقولون لقد أيد العلم الحديث ما جاء فى القرآن بالنسبة لهذا الكشف أو ذاك فإذا كنا لا بد قائلين فلنقل أن فى القرآن ما يجعل من هذا الكشف أمرا قد يكون مقبولاً ، بل إنى أنفر من الذين يحلو لهم أن يؤيدوا بعض ما قاله علماؤنا السابقون ببعض ما يقوله فلاسفة الغرب وكتابهم . فعلماؤنا هم الأصل ، ولا يمكن أن نجعل غيرهم حكاماً عليهم ، ومؤيدين لهم ؛ لأن معنى هذا الشعور بأن ما يقوله الغربيون هو الأقوى والأحق بالقبول .

لله سبحانه المثل الأعلى فلا مقارنة ، ولا ذهاباً إلى التأييد وإنما القصد أن أقول إن القرآن الكريم كشف عن كثير من طبائع النفوس البشرية ، وغرائزها ، وميولها وانفعالاتها فى وقت لم يكن يتيح لبشر كائناً من كان أن يكشف بهذه الدقة ، وبهذا الصدق عن هذه النزعات .

وقد تردد هذا المعنى كثيراً فى القرآن الكريم ، ولكنى أكتفى هنا بثلاث آيات هى جمّاع ما تناول به القرآن هذا المعنى :

الأولى تخبر أن الإنسان إذا مسه الضر لجأ إلى الله ، يستغيث به ، ويدعوه أن يكشف الضر ، ويرفع البلاء ، فإذا كشف الله عنه ضره نسي ربه ، ونسيَ ما مرّ به من بلاء : **﴿وإذا مسَّ الإنسان الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلمَّا كشفنا عنه ضُرَّه مرَّ كأنْ لم يدعنا إلى ضرٍّ مَسَّهُ﴾**[1] .

والثانية تنبئ أن الإنسان إذا نزعت منه نعمة أسبغها الله عليه يئس وكفر ، ولا شك أن اليأس يدعو إلى عدم الرضا عن الله ، وإلى التسخّط على ما قضى وقدّر : **﴿ولئن أذقنا الإنسان منَّا رحمة ثُمَّ نزعناها منه إنه ليئوس كفور﴾**[2] .

أما الثالثة فتؤكد أن الناس إذا أصابهم الضر دعوا بصدق وإخلاص فإذا كشف الضر عنهم افترقوا فرقتين : فرقة تبقى على حالها من الإخلاص لله ، والتعلق به ، أو يبقى معها شيء من هذا الإخلاص ، وهذا التعلق ، وفرقة تشرك بالله ، وتكفر به ، كما كانت حالتها قبل أن يصيبها الضر : **﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلمَّا نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلّا كلُّ ختارٍ كفور﴾**[3] .

وكلمة «مقتصد» هنا ذات مجال واسع ، وهذا بعض إعجاز القرآن فى اختيار ألفاظه ، فهى مقابلة لكلمة كفور فى هذا الموضع ، وكفور تدل على المبالغة فى الكفر ، وكان يمكن أن تكون فى مقابلتها كلمة شكور ، ولكن ـ والله أعلم بمقاصد كلامه ـ كأن الله ـ سبحانه ـ يقول إن الذين لا يحملهم زوال الخطر على نسيان الله ليسوا فى درجة واحدة ، فمنهم المبالغ فى الإخلاص لله ، والشكر

(١) سورة يونس ـ الآية ١٢ .
(٢) سورة هود ـ الآية ٩ .
(٣) سورة لقمان ـ الآية ٣٢

له ، ومنهم من يحتفظ ببعض هذا الإخلاص .

وبين هذين درجات متفاوتة ، وكل واحد من هذا الفريق تصدق عليه كلمة : «مقتصد» حتى الذى يجهد جهده ، ويبذل أقصى طاقته فى الشكر لله هو مقتصد ؛ لأن العبد مهما بالغ فى العبادة والشكر فلن يبلغ مما يجب لله عليه إلا أقل القليل ، فهو ـ بهذا المعنى ـ مقتصد .

بعد استعراض هذه الآيات ـ ومثيلاتها فى القرآن كثيرة ـ يحق لنا أن نقول ـ دون قصد إلى المقارنة أو التنظير ـ إن وصف القرآن الكريم للطبائع البشرية وتنبيهه إلى مكامنها فى النفوس الإنسانية لا يذكر بجانبه ما أفنى فيه علماء النفس أعمارهم ، وما اغتروا به من نتائج التجارب والمعامل .

٣ ـ يقول الله تعالى فى خطاب نساء نبيه ـ عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم ـ : **﴿يا نساء النبىّ لستن كأحدٍ من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرضٌ وقلن قولاً معروفاً﴾** (١) .

والذى يلفت عالم النفس ، وعالم الاجتماع فى هذا الإرشاد الإلهى قوله ـ سبحانه ـ : **﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرضٌ﴾** ، فى الآية كلمة هى «تخضعن» وحرف هو (الفاء) فى «فيطمع» يدلان فى حسم ووضوح على طبيعة بشرية لا سبيل إلى الشك فيها .

ذلك أن المرأة ربما تماسكت الزمن الطويل ، فلا تكاد الظنون السيئة تحوم حولها . ولا تكاد نفس رجل تحدثه أن

---

(١) سورة الأحزاب ـ الآية ٣٢ .

يفاجئها بشيء يريده منها ، فإذا خضعت بالقول ، هكذا (خضعت) ذلك الخضوع الليّن ، المائل عن جادة الوقار ، والحفاظ على العرض ، والذى يثير شهوة الرجل ، وأكثر ما يكون الخضوع بالقول فى لهجة المتحدث ، وطريقة نطقه بالكلام واختيار كلمات معينة . أقول : إذا خضعت بالقول ـ على هذه الطريقة ـ يطمع فيها صاحب القلب الفاسد . وما أدق تعبير القرآن عن هذا الفساد بالمرض ، بل إن الطمع يتحرك فى نفسه عند سماعه لكلامها الخاضع دون تريث أو إبطاء ، وهذا ما يفيده حرف الفاء الذى نصفه فى لغتنا العربية بأنه : (للترتيب مع التعقيب) ، وبذلك نحدد وظيفته فى هذه اللغة ، أى إن الحدث الذى تدخل عليه هذه الفاء يترتب على الحدث الذى ذكر قبلها ، ويقع عقيبه مباشرة ، فبمجرد أن تلفظ المرأة بقولها الخاضع يتحرك الطمع فى القلب المريض ، بل ربما قبل أن تتم كلامها .

ولا شك فى أن هذا هو الذى يحدث بين رجل مدخول القلب يحادث امرأة نديّة الألفاظ ، مؤنثة اللهجة ، مبالغة فى هذا التأنث .

والقرآن الكريم لم يقل : (فلا تليّن) فإن اللين فى القول ربما أدى إلى الإطماع ، ولكنه يحتاج إلى تكرار القول اللين ، وقد تلين المرأة فى الكلام ، ولكن تبدو على تقاسيم وجهها سمات الصرامة والعفة والشرف .

أما الخضوع بالقول فلا يحتاج إلى ثانية واحدة بعد سماع الرجل المريض القلب ، لا سيما رجلاً عاشقاً مدلهاً مع امرأة ذات جمال وشرف ومنصب .

وهكذا يكشف القرآن عن الطبائع البشرية فى دقة وصدق ووضوح .

على أن فى هذه الآية لطيفة دقيقة ، فهى خطاب لنساء النبى ، وهن ما هن ، شرف منصب ، وكمال عفة ، وجلال قدر ، فإذا كان القرآن الكريم يحذرهن من الخضوع بالقول خشية الطمع فيهن فمعنى ذلك أن الطمع كأنه حتم لازم للخضوع مهما كانت مكانة المرأة ، ومهما علا قدرها .

ولو كان الخطاب للنساء المؤمنات بعامة لكان ـ أيضاً ـ كشفاً عن الطبيعة الإنسانية التى لا مجال للشك فيها ، لكنه مع نساء النبى أبلغ وأدق ، وأدل على تأصل تلك الطبيعة فى الإنسان المحكوم بشهواته ، الخاضع لسلطان غرائزه .

الفصل الثالث

الإنســـان فى
الآية الأولى من القرآن

قال الحافظ أبوطاهر السلفى[1] : سمعت أبا الكرم النحوى ببغداد . وسئل : كل كتاب له ترجمة ، فما ترجمة كتاب الله ؟ .

فقال : «هذا بلاغ للناس ولينذروا به»[2] .

قال الزركشى : (أما تسميته ـ يريد القرآن ـ (بلاغاً) فلأنه لم يصل إليهم حال النبى ـ ﷺ ـ وابلاغه إليهم إلّا به)[3] .

وذكر الألوسى أن الإشارة فى الآية : (إلى القرآن وهو المروى عن ابن زيد[4] ، وقيل إلى السورة ، وقيل : إلى بعضها) .

أقول : ولو سئلت هذا السؤال لأجبت : ترجمة كتاب الله تعالى هذه الآيات :

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ۞ خلق الإنسان من علق ۞ اقرأ وربُّك الأكرم ۞ الذى علَّم بالقلم ۞ علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ .

وهى أول ما نزل من القرآن كما يرى جمهور العلماء ، وبها بدأت الرسالة المحمدية .

---

(١) ونسبته إلى جده إبراهيم سلفه ـ بكسر السين المهملة ، وفتح الفاء ، وفى آخره هاء ، وهو لفظ أعجمى (وفيات الأعيان ط ، ص ١٠٧ ط . بيروت) .
وإنما نبهت على هذا لأن كثيراً من الدارسين يظنونه منسوباً إلى السلف ـ بفتح السين ـ

(٢) من الآية ٥٢ من سورة إبراهيم ، والنقل من (البرهان فى علوم القرآن) جـ ١ . ص ٢٨٢ .

(٣) البرهان جـ ١ ص ٢٧٩ .

(٤) روح المعانى جـ ١٣ ص ٢٥٨ .

والمتأمل فيها يجدها أجملت كل حياة الإنسان ، وأشارت إلى كل ما تضمنه القرآن ، وألمحت إلى أن هذا القرآن كتاب السماء .

فقد تضمنت هذه الآيات عقيدة التوحيد ، وخلق الإنسان ، والأصل الذى خلق منه ، وبعثة الرسول محمد ـ ﷺ ـ والتنويه بمكانة العلم ، وبمنزلة القلم .

وصف الله ـ سبحانه ـ نفسه فى هذه الآيات بأربع صفات :

أنه رب محمد ، وأنه خلق كل كائن ، وبخاصة الإنسان ، وبأنه الأكرم ، وبأنه علّم الإنسان ، وعلّم بالقلم .

وكل صفة من هذه الصفات ترشد العقل السليم إلى الإيمان بالله وحده ، فهو رب محمد : رباه وكمله ، وقد شرفه بهذه الإضافة ، وفى ذلك ما يشير إلى نبوته ـ عليه السلام ـ ؛ لأن غاية الكمالات أن تضاف صفة الربوبية إلى من أنزل عليه هذا القرآن .

ووصفُ الله نفسه ـ فى هذا المقام ـ بأنه الخالق يدل على أنه لا خالق سواه ـ كما يقول أهل السنة .

(قالوا : لأنه ـ سبحانه ـ جعل الخالقية صفة مميزة لذات الله ـ تعالى ـ عن سائر الذوات ، وكل صفة هذا شأنها فإنه يستحيل وقوع الشركة فيها . قالوا : وبهذا الطريق عرفنا أن خاصية الألوهية هى القدرة على الاختراع) .

(ثم لما صارت الإلهية موقوفة على الخالقية حصل القطع بأن من لم يخلق لم يكن إلهاً ، فلهذا قال تعالى : **﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾**[1] .

وكيف لا يكون خالقاً وقد بعث الحياة فى دم متجمد لا حياة فيه ؟!!

---

(١) من تفسير الفخر الرازى (مفاتيح الغيب) لسورة العلق ـ والآية من سورة النحل ١٧ .

والله ـ عزّ وجلّ ـ الأكرم ، فهو ـ وحده ـ المتصف بهذه الصفة ، وقد يكون فى الخلق الكريم ، ولكن : «الأكرم» الذى يعطى ما ينفع ، ولا ينتظر عوضاً هو الله وحده .

وهو ـ سبحانه ـ «الذى علم» : وهب الحياة لهذا الكائن الذى خلقه من عدم ، ولوّنه من «علق» ثم وهبه أشرف ما فى هذه الحياة ، وهو العلم . **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلّكم تشكرون﴾** [1] .

ومن عجيب مالاحظه العلم فى أمر الإنسان : (أن النفوس الإنسانية فى أول الفطرة أقل فهماً وذكاء وفطنة من نفوس سائر الحيوانات . ألا ترى أن ولد الدجاجة كما يخرج من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق ، فيهرب من الهر ، ويلتجىء إلى الأم ، ويميز بين الغذاء الذى يوافقه ، والغذاء الذى لا يوافقه ، وأما ولد الإنسان فإنه حال انفصاله عن بطن الأم لا يميز ـ ألبتة ـ بين العدو والصديق ، ولا بين الضار والنافع) [2] .

وذلك يدل على أن انتقال الإنسان من هذا الجهل المفرط فى الجهالة إلى العلم الواسع لا يمكن أن يكون عن طريق المصادفة أو عن القوانين الطبيعية ـ كما يقول الماديون الملحدون ـ بل لا بد لذلك من تدبير إله مختار قادر حكيم ، ينقل الأنفس من نقصانها إلى كمالاتها ، ومن جهالاتها إلى معارفها .

* * *

وهذه الآيات الكريمة التى بدىء بها نزول القرآن الكريم ، وبدئت بها الرسالة المحمدية ربطت خلق الإنسان بأمرين : العقيدة

---

(١) سورة النحل ـ الآية ٧٨ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ ١٩ ـ ص ٢٢٦ .

الصحيحة والعلم ، والمراد به العلم النافع أو الذى ينبغى أن يستخدمه الإنسان فيما ينفع البشرية ، ويساعد على تقدمها ورفاهيتها ، ويهيء لها حياة كريمة رفيعة .

ويدلنا هذا الربط على أنه لا إنسانية للإنسان إلّا بهذين : العقيدة الصحيحة والعلم ، والذى يتجرد منهما أو من أحدهما نصف إنسان بل هو إلى الحيوانية أقرب ، وأوضح الأمثلة على ذلك وأقربها إلى الأذهان ، وأمسّها بحياتنا المعاصرة ما نشأ عن الداروينية والفرويدية والوجودية من انحلال الأخلاق ، وسقوط المجتمعات فى هوة الرذائل ، وتجردها من كل المعانى الإنسانية النبيلة .

قال تعالى : **﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾** [1] .

وقال سبحانه :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [2] .

وقال عزّ وجلّ :

﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا. أم تحسب

---

(١) سورة محمد ـ من الآية ١٢

(٢) سورة الأعراف ـ الآية ١٧٩ ـ قال الراغب فى مفرداته : الذرء : إظهار الله تعالى ما أبدأه : يقال : ذرأ الله الخلق أى أوجد أشخاصهم ـ اهـ . والذرء فى أصل اللغة : بث الأشياء وبذرها وتفريقها وتكثيرها .
قال أهل المعانى : إن الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ، ولهم أعين يبصرون بها المرئيات وآذان يسمعون بها الكلمات ، وهذا لا شك فيه ، ولما وصفهم الله عزّ وجلّ بأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هذه الحواس الدراكة علم بذلك أن المراد بذلك يرجع إلى الحياة الروحية ، واللذات المعنوية ، والسعادة الأبدية .

أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ [١] .

فالأنعام لا همَّ لها إلّا أن تأكل وتشرب وتتمتع متعها الحسية ، وأولئك الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر لا همّ لهم إلّا الدنيا ، مثلهم مثل الأنعام ، بل هم أضل منها ، لأن هذه لم تعط ما أعطوا من العلم والعقل ، ولأنها لا تضر كما يضر هؤلاء ، هم غافلون عما ينفعهم ، وينفع أممهم النفع الحقيقى ، ولذلك لا يبالون أن يفتكوا بالإنسانية ، وأن يضحوا بقيم الحياة الرفيعة فى سبيل مطامعهم ، وهم أضل من الأنعام لأنهم لم يستعملوا عقولهم فى البحث عن الخالق ، ولا حواسهم فى إدراك ما يؤدى بهم إلى الإيمان .

ولبعض علمائنا ــ هنا ــ كلمة لطيفة صادقة لاذعة ، يقول : إن الحمار إذا ضُرب التفت ؛ لأنه لا يتصور أن يوجد ضرب بلا ضارب ، فمن تصور أو ادّعى أنه يوجد أثر بلا مؤثر ، ونظام دقيق الصنع بلا منظم ، وأشياء متقنة كل الإتقان بلا صانع حكيم قادر فهو أجهل من الحمار .

فالإنسان بلا عقيدة ولا علم أضل من الأنعام ، والإنسان العالم بلا عقيدة فساد فى الأرض ، ووبال على الإنسانية ، وكارثة تصيب كل القيم الصالحة فى الحياة وهكذا كان ماركس ودارون وأشباههما .

والإنسان المؤمن بلا علم على شفا جرف من الضياع ، فالعقيدة ما لم يحرسها العلم تضر أكثر مما تنفع .

---

(١) سورة الفرقان ــ الآيتان ٤٣ ــ ٤٤ .

على أن أفضل العلم ما يحرس العقيدة ، وفى المقام الأول من العلوم العلم بالله وصفاته ، وبالشريعة وأحكامها ، وبسنن الله فى الكون ، وفى الأنفس .

فالجاهل بكل هذه قد يعبد الله ، ولكنه لا يأمن على نفسه أن يشرك به من حيث لا يدرى ، ولا على سلوكه أن يضل الطريق السوى .

وكثيراً ما رأينا وقرأنا عن أصحاب الأهواء ممن يدعون العلم والتقوى والورع ما لا يتفق مع العقيدة الصحيحة ، فهم يتلعبون بالجهال ، ويوردونهم موارد الهلكة ، وينحرفون بهم عن الدين الصحيح ، والعقيدة السليمة ، ويبتزون أموالهم ، ويحملونهم على الاعتقاد فيهم بأن لديهم مفاتيح الجنة ، وعلم المغيبات .

وقد كان حرياً بالباحثين فى العلوم الكونية ، والمتعمقين فى دراسة النفس الإنسانية ، مادة وروحاً ، أن يكونوا من السابقين إلى الإقرار بإله قادر عليم هو الذى خلق هكذا الكون ، وصرَّفه على أدق نظام ، وأحكم بناء .

وفى القرآن الكريم آيتان غفل عنهما الكثيرون ، هما قوله تعالى :

﴿ألم تر أنَّ الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدّوابِّ والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنَّما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾ [١] .

---

(١) سورة فاطر ــ الآيتان ٢٧ ــ ٢٨ . والجدد ، جمع جدة وهى الخطة أو الطريقة .

والعلم هنا وإن كان يشمل جميع العلوم ، وان ورد فى بعض كتب التفسير بأنه العلم بالله وصفاته ـ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بما ذكر فى هاتين الآيتين ، فالعلم الذى ينشأ عن مجرد التأمل فى النبات والجماد والحيوان يفضى إلى العلم بالله وصفاته فتكون الخشية من الله ، بل تكون مقصورة على أهل العلم لأنهم العالمون به سبحانه وبصفاته .

فلا غرو أن يكون البحث المتعمق ، والدرس الواعى ، والتخصص الدقيق من علماء النبات ، وعلماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) ، وعلماء الطب البشرى ، وعلماء النفس ، والعالمين ببيطرة الدواب . لا غرو أن يكون كل ذلك أدعى إلى الإيمان بالله وبوحدانيته وبسائر صفاته ، ثم بالخشية منه .

وقد كان من البديهى أن يكون كل كشف جديد لأسرار هذه الكونيات مما يزيد العالم إيماناً ، ويقيناً بوجود إله قادر عزيز حكيم ، ويصرفه عن الأوهام الكاذبة التى تخيل له أن كل هذه العجائب الغرائب وليدة القوانين الطبيعية ، أو بفعل المصادفة ولكن الله ـ سبحانه ـ يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، وأى ضلال وأى حمق وأى خسران أعجب من أن تكون بين يدى العالم الآيات البينات الدالات على أن لهذا الكون إلهاً واحداً ، ولكن العالم النحرير ، الباحث المحقق يعمى أو يتعامى عن اتيات الله فى الكون ؟ ! !

• وقد فسر اختلاف الألوان ـ هنا ـ فى النبات وفى الإنسان وفى الحيوان باختلاف الأجناس والأنواع ، فمن النبات ـ مثلاً ـ التفاح والعنب والرطب ، وعلى حد ما ورد فى قوله تعالى : ﴿**فينظر الإنسان إلى طعامه • أنَّا صببنا الماءَ صبًّا • ثم شققنا الأرض شقا • فأنبتنا فيها حبًّا • وعنباً وقضبا • وزيتوناً ونخلا • وحدائق غُلباً •**

وفاكهة وأبّا * متاعاً لكم ولأنعامكم﴾[1] * .

ويكون فى الناس وفى الحيوان باختلاف أجناسها وأنواعها كذلك .

وقد يكون اختلاف الألوان هنا اختلافاً فى الهيئات من البياض والحمرة والصفرة .

وعلى التفسير الأول يكون البحث باكتناه بواطن الأشياء ، وبكشف أسرار خلقها وتكوينها .

وعلى التفسير الثانى يكون اختلاف الألوان من الآيات الدالة على قدرة الله ، قال تعالى : **﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إنَّ فى ذلك لآياتٍ للعالمين﴾**[2] .

قال الزمخشرى : (الألسنة اللغات أو أجناس النطق وأشكاله . خالف ـ سبحانه ـ بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين فى همس واحد ، ولا جهارة ولا حدة ولا رخاوة ولا فصاحة ولا لكنة ولا نظم ولا أسلوب ، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله ، وكذلك الصور وتخطيطها ، والألوان وتنويعها ، ولاختلاف ذلك وقع التعارف ، فلو اتفقت وتشاكلت ، وكانت ضرباً واحداً لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعطلت مصالح كثيرة ، وربما رأيت توأمين يشتبهان فى الحلية فيعروك الخطأ فى التمييز بينهما ،

---

(١) سورة عبس . الآيات ٢٤ ـ ٣٢ .
والقضب هو الرطبة ، وهى التى إذا يبست سميت بالقت أو هو العلف بعينه ذكره المبرد ، وهو قول الحسن .
والغلب : المتكاثفة الأشجار أو الشجر العظام . والأب هو المرعى ، وقيل : الفاكهة اليابسة .

(٢) سورة الروم ـ الآية ٢٢ .

وتعرف حكمة الله فى المخالفة بين الحلى ، وفى ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد ، وفرعوا من أصل فذّ ، وهم على الكثرة التى لا يعلمها إلّا الله مختلفون متفاوتون)[1] .

* * *

ثم نعود للآيات الكريمة التى بنينا عليها هذا الفصل فنرى أن الأمر الموجه إلى النبى ـ ﷺ ـ بالقراة ذكر مرتين ، كما ذكر فيها التعليم بالقلم .

ومن البعيد كل البعد أن ينبه رجل أمىّ فى أول ما يذكر من قرآن ـ لو كان القرآن من عنده ـ إلى فضيلتين لم يكونا له ـ لحكمة أرادها الله تعالى ـ فمحمد ـ ﷺ ـ كان أمياً ، لا يقرأ ولا يكتب ، ومن بعض ما يدل على ذلك قوله تعالى : **﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخُطّهُ بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾**[2] .

ذلك أن من شأن من يحاول أمرا عظيماً أن يشيد بالصفات التى يعرفها الناس فيه ، أو على الأقل أن يعرض بها ، أما أن يشيد بصفة هو مجرد منها فذلك دليل صدقه ، وأمارة بعده عن الادعاء والتقوُّل .

ويتكرر فى القرآن الكريم الربط بين خلق الإنسان وعقيدة التوحيد ، والعلم ، يقول الله تعالى : **﴿الرحمن علَّم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان﴾** .

ونلاحظ فى هذه الآيات أن الله ـ سبحانه ـ قدّم التعليم على خلق الإنسان ثم أعاده ثانياً ، فجاء خلق الإنسان مكتنفاً بالتعليم ،

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٢٠١ ـ الطبعة الأولى ـ والحلية : الهيئة . والمراد بالأب الواحد آدم ـ عليه السلام .

(٢) سورة العنكبوت ـ الآية ٤٨ .

سبقه ولحقه ، كما نلاحظ أن التعليم الأول تعلق بالقرآن ، والقرآن فيه التوحيد والنبوة والعلم ، وبالبيان امتازَ الإنسان عن غيره من الحيوانات ، فهو نعمة لا تقل عن نعمة الخلق ، بل لا قيمة للإنسان ما لم يكن قادراً على الإبانة عما فى نفسه .

ويقول ـ سبحانه ـ وقد قضى أن يستخلف الإنسان فى الأرض : ﴿**وإذ قال ربُّك للملائكة إنّى جاعل فى الأرض خليفةً قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ۞ وعلَّم آدم الأسماء كلَّها ثمَّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ۞ قالوا سبحانك لا علم لنا إلَّا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ۞ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمَّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾ (١) .

فجعل سبحانه العلم هو السرّ فى استخلاف الإنسان فى الأرض ، وتحميله مسئولية تعميرها ، والأخذ بالأسباب التى تصلحها ، وتقيم حياة سعيدة فيها .

استخلف الله الإنسان ، وجعل السر فى ذلك العلم على الرغم مما وصفت الملائكة به هذا الإنسان بأنه : ﴿**يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ .

وقد يلفت النظر أن مادة (العلم) وردت فى هذه الآيات سبع مرات ، ولا شك أن لذلك دلالته على مكانة العلم ، وصلته القوية باستخلاف الإنسان فى الأرض .

---

(١) السورة التى تذكر فيها البقرة ـ الآيات ٣٠ ـ ٣٣ .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة ترفع من قدر العلم والعلماء ، وهذا ما دعا المسلمين إلى أن يبذلوا غاية جهدهم فى تحصيل العلم ، وقد وصلوا من ذلك إبان نهضتهم الى ما لم تصل إليهم أمة قبلهم ، بل كانت نهضتهم العلمية فى الوقت الذى كانت فيه كل الأمم حولهم تخبط فى ظلمات الجهل ، وتعيش على الخرافات والأوهام التى يزينها لهم رجال الدين ، أو على التقليد الذى يرغمهم عليه أصحاب السلطان .

وقد كانت علوم العرب ومعارفهم هى النبراس الذى أضاء لقافلة البشرية الطريق فى عصور النهضة الحديثة ، فقد كانت أوربا عالة على علوم العرب ، تدرسها فى جامعاتها إلى أواخر القرن السابع عشر الميلادى ، وبذلك اعترف المنصفون من كبار العلماء والباحثين الغربيين .

يقول دكاريتسكى : (إن الأبحاث الحديثة قد دلت على عظم ديْنيا للعلماء المسلمين الذين نشروا العلم بينما كانت أوربا فى ظلمات القرون الوسطى) .

وتقول الكاتبة الألمانية الدكتورة سيجريد هونكه : (إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء من العدم من أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى ، فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة فى نوعها ، وإن الإنسان ليقف حائراً أمام هذه المعجزات العقلية الجبارة ، وإن أوربا لتدين للعرب وللحضارة العربية ، وإن الدَّين الذى فى عنق أوربا وسائر القارات للعرب لكبير جداً) .

وقد كان ذلك ــ دون أدنى شك ــ بفضل توجيه القرآن الكريم للإنسان ، وحثه على طلب العلم ، وإشادته بفضل العلماء :

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[1] .

ولا يفوتنا ـ هنا ـ أن ننبه إلى خطأ كبير وقع فيه سَدَنَة العلم حيث ادعوا التناقض بين العلم والدين ، وعبدوا العقل والمادة ، وزعموا أن العالم الحق لا يكون متديناً وأن المتدين لا يكون عالماً ، ومع الأسف ردد هذا بعض شعرائنا السابقين ، فقد نسب إلى أبي العلاء المعرى قوله :

إثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا
دين ، وآخر ديّن لا عقل له

فى القرآن الكريم ما يفنّد هذا الزعم ، ويبطل هذه الفرية ، فقد جمع فى الآيات التى أوردتها وفى غيرها بين العلم والدين وهو يتحدث عن خلق الإنسان وعن آياته فى الكون ، وتكفى جملة واحدة من القرآن الكريم فى الرد على هؤلاء : **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** .

وتاريخ الأمة الاسلامية فى أزهى عصورها أعدل شاهد على أن العلم الصحيح ينشأ فى ظلال التدين العميق الصافى .

على أن أكثر الغربيين الآن ينكرون ما كان يقوله بعض علماء القرن التاسع عشر من العداوة بين العلم والدين .

وإذا كانت أول آية نزلت من القرآن تحدثت عن خلق الإنسان ، وأنه مخلوق من علق فليس من قبيل المصادفة أن تكون آخر آية نزلت أو من أواخر الآيات التى نزلت تتضمن نهاية الإنسان ، وتبين أن مصيره إلى الله ، وأن الإنسان سيوفى حسابه كاملاً على ما عمل فى حياته الدنيا :

---

(١) سورة المجادلة ـ الآية ١١ .

عن إبطال مذهب من المذاهب لا يصدر فقط عن (وجوب) ذلك عليه .

وثانياً : وقف صاحب الرأى عند فكرة واحدة هى (خلق الإنسان من طين) . ولم يجل النظر فى جميع الآيات التى تحدثت عن خلق الإنسان .

ثالثاً : إذا التزم الباحث بما يقتضيه الأسلوب العربى واستخرج من القرآن الكريم ما يمليه هذا الأسلوب فقد أدى حق القرآن عليه ، وقد قام بواجب يمليه عليه الفهم الصحيح الدقيق لأسلوب القرآن الكريم .

* * *

وقد قلت أن فى آية الروم دقيقة اهتدى إليها العلماء السابقون ، وأقول إنى اهتديت إلى دقيقة أخرى فى آيات أخرى ، وكلتاهما واضحة الدلالة فى إبطال مذهب النشوء والارتقاء .

أما الدقيقة الأولى فيحدثنا الامام فخر الدين الرازى وهو يفسر هذه الآية الكريمة آية سورة الروم فيقول : (وفى الآية لطيفتان : إحداهما قوله : (إذا) وهى للمفاجأة ، يقال : خرجت فإذا أسد بالباب ، وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان ، لا أنه صار معدناً ، ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً ، وهذا إشارة إلى مسألة حكمية وهى أن الله تعالى يخلق أولاً إنساناً فينبهه أنه يحيى حيواناً أو نامياً وغير ذلك ، لا أنه خلق أولاً حيواناً ثم يجعله إنساناً) .

ولعل الرازى يرد بذلك على ما وصل إليه علمه من قول فلاسفة الإغريق من أن الخلية أو (الأميبا) هى أصل الحيوانات حتى الإنسان ، وذلك أن الأميبا تطورت إلى الإسفنج ثم نشأت

وآيات القرآن فى بيان ما سخر الله للإنسان ، وما خلق وقدر لمنافعه كثيرة ، لعل هذه الآية الأخيرة من أشملها ، فإن الله ذكر فيها كل النعم التى اشتمل عليها الكون ، والنعم التى اشتملت عليها النفس .

ومن الآيات الجامعة ـ أيضاً ـ قوله تعالى :

﴿وسخَّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ۝ وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إنَّ فى ذلك لآية لقوم يذَّكرون﴾[1]

وقبل هاتين الآيتين وبعدهما ذكر الله سبحانه نعماً كثيرة امتن بها على عباده ، ثم ختم هذه الآيات بقوله : **﴿وإنّ تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها﴾** .

ـ ٢ ـ

ولقد عرض القرآن الكريم شئوناً كثيرة تتعلق بالإنسان منذ تكوينه جنيناً إلى أن يفارق الحياة ، ولم يعرضها لتكون ضوابط علمية ، أو كليات منطقية ، وإنما كان يهدف دائماً ـ والله أعلم بمراده ـ إلى موضع العبرة والعظة ، أو إلى دلالتها على الخالق القادر ، أو إلى توجيه الإنسان إلى خير ليفعله ، أو تنبيهه إلى شر ليجتنبه .

من ذلك ـ مثلاً ـ الحديث عن (خلق الإنسان) وهو ما جاء فى هذه الآيات الكريمة التى اتفق جمهور العلماء على أنها أول ما نزل من القرآن .

فقد عنى القرآن بالحديث عن خلق الإنسان للاستدلال بهذا الخلق على قدرة الله تعالى ، ولبيان إمكان البعث ، ولتنبيه الإنسان

---

(١) سورة النحل الآية ١٢ ـــ ١٣ .

أما الدقيقة الثانية فى قوله تعالى : **﴿إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من ترابٍ ثم قال له كن فيكون﴾** .

وذلك أن هنا ضميرين كلاهما يرجع إلى آدم : (خلقه ـ له) ، وليس بينهما فاصل فالذى قيل له : (كن) هو الذى خلق (من تراب) أى أن الواسطة معدومة بين الخلق من التراب بين وجود آدم ـ عليه السلام ـ .

الخلق يكون بمعنى التقدير ، وهو أحسن ما فسّر به هنا ، والمعنى أن الله سبحانه قدّر خلق آدم ، والتقدير المراد هنا معناه (إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء) [1] ، ـ وليس هذا إلّا لله تعالى ـ من تراب ، وقال له كن فكان ، فلو أن الله ـ سبحانه ـ انتزع آدم من حيوان لقاله كما قال إنه خلق من تراب ، وذلك أن الحرف (من) هنا مستعمل فى الابتداء أى أن ابتداء خلق آدم كان من تراب .

ثم هذه المماثلة بين عيسى وآدم ما المراد بها ؟ عيسى خلق من غير أب والنصارى يزعمون أنه ـ لذلك ـ ابن الله فيرد عليهم القرآن بأن من البشر ـ بل أبا البشر ـ خلق من غير أب وأم ، ولم يدع أحد أنه ابن الله ، ولو كان آدم متطوراً عن زاحفة أو سمكة أو عن قرد لما كان بينه وبين عيسى هذه المثلية التى يحتج بها القرآن ، لأن هذه المخلوقات من أب وأم ، والقرآن الكريم حدد المثلية فقال عن آدم (خلقه من تراب) أى من غير سلف له من الأحياء .

على أن ما وقف عنده الأستاذ العقاد فيه الحجة البالغة ، ولكنه لم يقع عليها ، أو لم يشأ أن يتبينها أو يبينها يخبينها ، ذلك أنه اقتصر

---

(1) ذكر ذلك مجد الدين الفيروز أباده فى كتابه : (بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ ٢ . ص ٥٦٦ ـ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ بالقاهرة .

انتشر فى أوربا ما سمى بمذهب (النشوء والارتقاء) وخلاصته أن الإنسان لم يخلق أولاً إنساناً وإنما تطور عن (القردة السيمانية)، وذلك بفعل الانتخاب الطبيعى، وينسب إلى عالم من علمائهم، ويقترن به فيقال: (مذهب داروين)، وقد أبطل هذا المذهب بعد داروين فلاسفة أوربيون كثيرون حتى قيل إن هذا المذهب أصبح غير ذى موضوع.

ويرى بعض المفكرين من المسلمين أن نسكت عن دلالة من القرآن تبطل هذا المذهب قال: (ومذهب التطور ـ خاصة فيما يتعلق بتحول الأنواع ـ لم يثبت بالدليل القاطع لأن أنصاره لم يذكروا حتى الآن حيواناً واحداً تحول من نوع إلى نوع بفعل الانتخاب الطبيعى، أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصلح، ولكن بطلان القول بهذا الانتخاب لم يثبت ـ كذلك ـ بالدليل القاطع على وجه من الوجوه، وليس فى القرآن ما يوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب الطبيعى؛ لأن خلق الإنسان من الطين لا ينفى التحول إلى غير الطين، ولا يوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب وإنما نعلم من القرآن أن الله بدأ خلق الإنسان من طين: **﴿ثُمَّ جعل نسلهُ من سلالة من ماء مهين﴾**[1]، وفى آية أخرى: **﴿من سلالةٍ من طين﴾**[2].

فلا اختلاف بين هذا وبين التحول الذى يثبت ـ إذا ثبت ـ على وجه من الوجوه»[3].

فأولاً: حديث (الوجوب) ليس وارداً هنا فحين يتكلم الباحث

---

(١) سورة السجدة ـ الآية ٨.
(٢) سورة المؤمنون الآية ١٢.
(٣) عباس محمود العقاد ـ الإنسان فى القرآن الكريم ص ١٧٥ ـ ١٧٦. طبعة دار الهلال.

ومن هنا أستطيع أن أقول ـ وبكل الوضوح ـ إن قضية الوجوب التى أنكرها الأستاذ العقاد فى قوله : (وليس فى القرآن ما يوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب الطبيعى) ، والتى سايرته فيها حتى أصل إلى هذه الغاية ـ أقول : إن الآيات الصريحة فى الربط المباشر بين البشرية والطين ، والدقيقتين اللتين ذكرتهما ـ كل ذلك يوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب الطبيعى .

* * *

بقى أن بعض الكاتبين المعاصرين من أبناء جلدتنا يذكر أن الماديين الملحدين لا يرون القرآن شيئاً فى ميزانهم ، ثم يقول : (أفتساق الحجة لأمثال هؤلاء من القرآن أو التوراة أو الإنجيل وهم لا يعترفون بها ، ولا بمن نزلت عليهم ، ولا بالنوع الذى ينتسب إليه من نزلت عليهم ؟ أم الأولى أن تساق الحجة إلى هؤلاء من رحاب الفكر والكون الواسع بمنطق هذا الزمان ، مادامت آيات الله فى الآفاق والأنفس دائماً تسعف الذين يخلصون لله ، ويخلصون للفكر فى الكون)[1] .

وأن يمنع أحد أن تساق الحجة لهؤلاء الملحدين من رحاب الفكر ليس وارداً ، ولكن أن نسكت ـ فى محاجة هؤلاء ـ عن بيان ما فى كتابنا المقدس من حقائق تبطل مزاعمهم ليس وارداً ـ أيضاً ـ بل أرى أن هذا البيان واجب حتمى على كل باحث يتهيأ له أن يقف على موضع الحجة الدامغة من القرآن ـ أرى ذلك لأمور .

أولاً : حين نحتج بالقرآن على هؤلاء الماديين الملحدين لا نخاطبهم وحدهم ، وإنما نخاطب العالم كله ، من كان ملحداً ومن

---

(١) الأستاذ عبدالمنعم خلاف ـ فى كتابه : (أومن بالإنسان) ص ٢٣٠ ـ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ بالقاهرة .

الحيوانات الرخوة من الإسفنج بطريق الارتقاء ، ثم الحيوانات القشرية ، ثم الفقريات ، ثم الأسماك ، ثم الزواحف ، ثم الطيور ، ثم الثدييات ، ثم الإنسان .

ولتوضيح كلام الفخر ـ وإن كان واضحاً ـ أقول إن الآية جاء فيها الظرف إذا ومعروف فى العربية أن هذا اللفظ يفيد المفاجأة ، تقول : خرجت فإذا الجوبارد ، وألّفته فإذا هو كتاب رائع ، أى إنك فوجئت عند أول لحظة من خروجك ببرودة الجو ، وعند انتهائك من تأليف الكتاب بروعته .

وقياساً على هذا يكون معنى : «إذا أنتم بشرٌ» أنكم فاجأتم وقت كونكم بشراً تنتشرون فى الأرض ، ومعناها أيضاً أن مجيئكم بشراً كان نتيجة مباشرة لخلقكم من تراب ، فالإنسان خلق ـ بادىء ذى بدء ـ إنساناً .

ولم يكن الفخر الرازى ولا غيره من العلماء الذين تنبهوا لهذه الدقيقة ـ أو اللطيفة كما يقول الفخر ـ يتوقعون أنه سيجىء بعد قرون من ينكر هذه الحقيقة ويزعم أن الإنسان كان فى الأصل قرداً ، ويجعل ذلك نظرية يسميها : (أصل الأنواع) .

وربما أكد هذا الاستخراج قول الله تعالى : **﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾** [1] .

وذلك أن : «أحسن تقويم» مرتبط مباشرة بخلق الإنسان فليس بينهما زمن أو أزمنة يكون فيها هذا المخلوق قرداً ثم يصير إنساناً [2] .

---

(١) سورة التين ـ الآية ٤ .

(٢) يرى دارون وأتباعه أن التطور الذى زعموه يحدث على الألوف أو الملايين من السنين ، ويرى آخرون أن آدم نشأ فى الأرض خلية ثم صار إنساناً بعد خمسة آلاف سنة ـ فأى ـ رجم بالغيب هذا وذاك !

ما أنزل الله ، ولكنهم لا يفتأون يرددون فى كل مناسبة بل فى غير مناسبة بعض أقاويل منها .

اليهود ـ مثلاً ـ احتجوا ويحتجون وسيظلون يحتجون بأن التوراة أعطتهم فلسطين وطناً سائغا لهم ، ومع الأسف آمن بذلك من كانوا يدينون بالإسلام ، بل ذهبوا يدعون بدعوتهم ، ومن ذلك ـ مثلاً ـ الخارج عن الإسلام المسمى (بهاء الله) رئيس الطائفة البهائية وله اتباع فى كل البلاد الإسلامية تقريباً يعلن من غير مواربة ولا خجل بأن فلسطين هى أرض الميعاد لليهود ، وأن من حقهم الاستقرار فيها ، (كان ذلك بعد عهد بلفور المشهور سنة ١٩١٧م) .

* * *

والقرآن الكريم حين يذكِّر الإنسان بأصله لا يقصد ما يقصده علماء التشريح من البحث فى جسد الإنسان وتركيبه ، وإنما يقصد معنى أسمى من ذلك .

فمثلاً هذه الآيات الكريمة : **﴿أيحسب الإنسان أن يترك سُدىً. ألم يك نطفة من منيٍّ يُمنى * ثم كان علقة فخلق فسوَّى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى﴾**[1] .

فيها أقوى الدلالة على قدرة الله تعالى الذى خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين : ذكراً وأنثى ، كما أنها تدل على القدرة التى تحيي الموتى ، وتبعثهم من قبورهم ، وتعرضهم للحساب والجزاء .

وقد بدئت السورة الكريمة بالإشارة إلى أن من الناس من ينكر

---

(١) سورة القيامة ـ الآيات ٣٦ ـ ٤٠ .

على قوله تعالى : ﴿ثُمَّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ ، ولو ذكر الآية التي قبلها لوجد فيها الحجة : ﴿الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ [1] .

والظاهر أن المراد بالإنسان فى هذه الآية آدم ـ عليه السلام ـ والدلالة هنا هو أن الذى بدىء خلقه من طين هو الإنسان فالتصريح بهذا اللفظ لا يدع مجالاً للغموض فى الربط المباشر بين الطين والإنسان .

وآيات أخر واضحة الدلالة كهذه الآية ، منها قوله تعالى : ﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾ [3] .

فالربط بين البشرية والطين ، وبينها وبين الصلصال على أن كلا منهما معدنها وأصلها ، وأنها عنها نشأت ، ومنها أخذت لا يدع مجالاً لرأى آخر يقول بأن بينهما واسطة أو وسائط .

والحسم هنا فى ذكر (البشر) و(الإنسان) مقترنين بأصلهما المباشر ، وهى الآيات التى أهملها من لا يجرءون على القول بأن القرآن الكريم يدفع القول بنظرية (التطور) سواء قال بها دارون أو هذب منها غيره [4] .

---

(١) سورة السجدة ـ الآية ٧ .
(٢) سورة (ص) ـ الآية ٧١ .
(٣) سورة الحجر ـ الآية ٢٨ .
(٤) قرأت فى إحدى المجلات الدينية (مجلة الأزهر ـ (ذو القعدة سنة ١٣٩٦هـ) لأحد العلماء الأفاضل (الأستاذ مصطفى الطير) أن بعض المفكرين المصريين المعاصرين قال إن آدم نشأ فى الأرض خلية وقد تدرج منها عبر خمسة آلاف سنة حتى وصل إلى أحسن تقويم بهداية الله ، وتطويره إياه ـ فالتطور ـ على هذا ـ ليس عضوياً ذاتياً بفعل الله وخلقه .

الكريمة ؛ إذ أثبت البحث الحديث أن كل أعضا الإنسان يمكن أن تتشابه فيكون عضو فى شخص يشبه مثيله فى شخص آخر ، أو فى أشخاص آخرين ما عدا البنان ، فإن بنان إنسان تختلف اختلافاً ما عن بنان سائر الناس ، فلكل إنسان بنانه الخاص به لا يشتبه مع بنان آخر ، ولذلك أقيم رسم البنان مقام (التوقيع) على الصكوك والوثائق والإشهادات ، واعتمد البحث الجنائى اعتماداً كبيراً على (بصمات الأصابع) ، وبخاصة بصمة إبهام اليد .

فالله ـ سبحانه ـ قادر على أن يسوى لكل إنسان بنانه الخاصة به ، وإذا كان هذا ـ ولا شك ـ فى قدرته فإعادة الأعضاء التى تتشابه أدخل فى القدرة ـ على ما تدركه عقولنا من المفاضلة بين دقيق وجليل .

* * *

وهذا الإنسان الذى خلق من التراب الراكد البارد الرطب الكدر ، ومن الماء المهين خلقه الله فى (أحسن تقويم) كما صرحت بذلك آية (التين) .

فالإنسان فى أحسن هيئة جسمية ، إذ خلق الله كل ذى روح مكباً على وجهه إلّا الإنسان ، فإن الله ـ جلت قدرته ـ خلقه مديد القامة ، يتناول شرابه وطعامه بيده ، وليس بخاف أن تناسب أعضاء الإنسان يجعل له صورة جميلة ، وهذا مصداق قوله تعالى : **﴿خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم﴾** [1] .

والإنسان أكمل المخلوقات بما وهبه الله من قوىً باطنة : قلب يعقل به ، وضمير يحاسبه ، ويهديه الطريق ، وعاطفة تجعله يشعر

(1) سورة التغابن ـ الآية ٣ .

كان مؤمناً ، وهؤلاء قد جهدوا فى إذاعة نظرياتهم الفاسدة بكل ألوان الإذاعات فطافت بالعالم كله ، فالبيان ليس لهم فحسب وإنما لكل إنسان سمع بمقالتهم آمن بها أو أنكرها .

ثانياً : إن من الذين يتسمون بالإيمان من دان بمذاهبهم ، وإن كان يتحفظ حين يؤمن بها فيرفض منها مظهرها الإلحادى ، وهؤلاء فى حاجة إلى من يذكرهم بأن فى قرآنهم ما ينكر عليهم تبعيتهم لهؤلاء .

ثالثاً : إن هؤلاء الفلاسفة الذين أبطلوا نظرية دارون أو نظرية فرويد بالحجج العقلية ليسوا كلهم منكرين لوجود الله ، بل عند بعضهم أصل الإيمان فحين نطلع هؤلاء على ما فى كتابنا ربما وجدوا فى ذلك ما يعينهم على الإمعان فى إبطال هذا المذهب أو ذاك ، بل ربما ـ مع المقابلة بين أدلتهم العقلية وما يبلغهم من أدلة كتابنا ـ يؤمن بعضهم به .

رابعاً : إننا حين نحتج بالقرآن لا نقصد فقط الاقتصار على موضع الحجة ، وإنما نريد من وراء ذلك ما هو أعم وأشمل ، نريد أن نلفت أنظار العالم ـ وبخاصة أصحاب الفكر والرأى ـ إلى أن لنا كتاباً صادقاً ، مصدقاً لما بين يديه من الكتب ، يقول الحق ، ويهدى السبيل ، وقد يرغب ذو فطنة وإيثار للحق أن يدخل معنا فى حوار حول هذا الذى ندعو إليه ، وحينئذ سنثبت له بالأدلة الحاسمة أن هذا كتاب السماء ، وأن كل ما فيه صدق وحق ، وربما حبب إليه ذلك الإيمان ، وزينه فى قلبه .

خامساً : أن أصحاب الكتب السماوية الأخرى لا يفتأون يحتجون بما جاء فيها حتى علينا نحن المسلمين ، وهم على يقين أننا على يقين أن هذه الكتب محرفة وأن الذى بين أيديهم منها ليس هو

والظلمات الثلاث هى : البطن والرحم والمشيمة (الكيس الذى يغلف به الجنين) . والقرار المكين هو الرحم ، وهو محصن تحصيناً محكماً داخل الحوض الذى أعده الله تعالى لحفظه .

والقرار مصدر وصف به المكان وهو الرحم مبالغة ، كما وصف الرحم بالمكانة وهى صفة للنطفة على سبيل المبالغة أيضاً ، وأصل الكلام جعل نطفة فى مستقر تمكنت فيه النطفة ، وجاء الكلام على هذا النظم مبالغة ، وهذا من أسرار الأسلوب القرآنى البديع العجيب .

ويؤخذ من كلام الأطباء فى وصف الرحم أن الله تعالى حاطه بكل أسباب الراحة ، وحصنه بأقوى وسائل الوقاية .

وتلك الحقائق العلمية التى تضمنتها هاتان الكلمتان : **﴿ظلمات ثلاث﴾** والكلمتان : **﴿قرار مكين﴾** لا يمكن أن يهتدى إليها ـ فى عهد الرسالة المحمدية ـ بشر ، فهى تنفى أن يكون القرآن من صنع محمد ـ كما يقول بعض الجاهلين ، وكما يفترى بعض الحاقدين على الإسلام ورسوله ، وعلى المسلمين ـ .

وأما أطوار الإنسان فى الحياة ، بعد الأمد الذى حدد له فى بطن أمه فهى وإن كانت معلومة إلّا أن القرآن يذكرنا لينبه الإنسان ـ تنبيهاً دائماً ـ إلى أنه لا يبقى على حال واحدة ، وأن له نهاية هى اليقين الذى يشبه الشك ، وليذكره أن البعث حق :

﴿يأيها الناسُ إن كنتم فى ريبٍ من البعث فإنا خلقناكم من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم من علقةٍ ثمّ من مضغة مخلَّقة وغير مخلقةٍ لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مُسمًّى ثُم نخرجكم طفلاً ثمَّ لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر

البعث : ﴿**أيحسب الإنسان ألَّن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوِّى بنانه * بل يريد الإنسان ليفجر أمامه * يسأل أيان يوم القيامة**﴾ .

فالذى خلق من هذه النطفة التى تراق بشراً ، وحوله من خلية صغيرة إلى إنسان يتحرك ويعمل ويعقل ـ قادر ـ ولا شك ـ على أن يعيده مرة أخرى ، كما قال تعالى : ﴿**وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم**﴾ (١) .

فلا شك أن إعادة الشىء الذى تبدعه على غير مثال سابق أهون عليك ـ فى نظرك ـ من بدئه ، وهذا مثل ضربه الله لنا ، وإلا فلا هيّن ولا أهون أمام قدرته تعالى ، فله المثل الأعلى .

وفى آيات سورة (القيامة) التى بدئت بها دقيقة فى قوله تعالى : ﴿**بلى قادرين على أن نسوّى بنانه**﴾ .

فقد قال المفسرون : إنما خص البنان ـ وهى أطراف الأصابع ـ لأنها آخر ما يخلق فى الإنسان ، ولأنها صغار لطاف ، فالذى يقدر على إعادتها وتسويتها يقدر على ما هو أكبر منها وأكثر تعقيداً .

ولكن الذى فى الآية ليس إعادة البنان وإنما هو (تسويتها) ، وإن كانت التسوية تستلزم الإعادة ، فلا جرم أن يكون وراء التعبير بالتسوية سرٌّ عظيم لا يكون وراء لفظ الإعادة ، وهذا ما كشف عنه العلم الحديث .

فقد أكدت الأبحاث العلمية الحديثة هذه الدقيقة فى الآية

---

(١) سورة الروم ـ الآية ٢٧ .

والعلم فى أشياء كثيرة منها أن عمارة هذه الأرض لا تكون إلّا بهما .

أما الألوهية فهى الأساس من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ولا طريق لتعريف الإنسان بربه ـ وإن كان العقل معيناً ـ إلّا الرسل ، فمن هنا كانت النبوة تلى الألوهية فى اهتمام القرآن بها .

وطبيعى أن تكون (الألوهية) والتنبيه إليها بحيث تملأ الأسماع ، وتهز القلوب فى أول ما نزل من القرآن .

وإذا كانت هذه الآيات ـ كما قلت ـ تتضمن أهم مقاصد الشريعة أفلا يحق لنا ـ بعد ذلك كله ـ إذا سئلنا السؤال الذى وجه لأبى الكرم النحوى : ما ترجمة القرآن ؟[1] أن نقول ونجيب : ترجمة كتاب الله هى هذه الآيات الكريمة التى كانت أول القرآن نزولاً .

هذا ، وبعد أن انتهيت من كتابة هذا البحث فوجئت بنص أدهشنى وسرنى ، وأعاد إلى ذهنى ما كان يقوله العرب : قد يقع الحافر على الحافر ، وما نقوله نحن : كثيراً ما تتلاقى الأفكار .

ذلك أن المصادفة[2] وحدها هى التى أتاحت لى المطالعة فى أحد كتب البلاغة بعد الانتهاء من تحرير هذا البحث ـ كما قلت ـ

ولست أدون هذا من قبيل الافتخار ، فأى شىء الدنيا حتى يفتخر بشىء فيها[3] .

---

(١) كلمة ترجمة هنا هى ما يطلق عليها الكاتبون كلمة (عنوان) ، ولكنى لا أحب استعمال هذه الكلمة الثانية مع كتاب الله تعالى .

(٢) هذه هى الكلمة الصحيحة من هذه المادة ، وكثير من الناس يستعملون كلمة (الصدفة) حتى لقد جعلها بعض الكاتبين عنواناً لبحث نشره فى إحدى المجلات ، ولا يعرف فى العربية وجه صحيح لها ـ فيما أعرف ـ

(٣) هذه الكلمة قالها السيوطى فى كتابه (حسن المحاضرة) بعد أن ذكر أن الله تعالى رزقه التبحر فى سبعة علوم ، وعدّدها .

بمُتع الحياة ، وغرائز تساعده ـ إن اعتدلت ـ على إصلاح شئونه ، وإدرك مطالبه ، والسعي الدائب لتحقيق مآربه .

وقد منحه الله لساناً ناطقاً يبين به عما فى نفسه من مطالب الحياة ، ويعبر به عما يجيش به صدره من معانٍ إنسانية ، ويتفاهم به مع الآخرين من بنى جنسه .

ولقد حدثنا القرآن الكريم عن الأطوار التى يمر بها الإنسان فى بطن أمه ، وعن الأطوار التى يمر بها بعد أن يستقبل هذه الحياة ، فقال تعالى :

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (١) .

وهذه الأطوار كانت مجهولة كل الجهل فى عهد نزول القرآن ، ولم يعرفها العلم إلّا بعد زمن طويل ، وهذا يدل على أن القرآن من عند الله تعالى ، لأنه لم يكن لبشر فى ذلك التاريخ أن يحدث بهذا الذى اشتملت عليه الآيات وكشفه العلم بعد تقدم فن التشريح .

وقد وصف الله ـ سبحانه ـ رحم الأم فى هذه الآيات بأنه : **﴿فى قرار مكين﴾** كما جاء فى آية أخرى أن الجنين يتخلق فى : **﴿ظلمات ثلاث﴾** :

﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث﴾ (٢) .

---

(١) المؤمنون ـ الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .
(٢) سورة الزمر ـ الآية ٦ .

من قوله أو من قول البيهقى ، ولم يتح لى الاطلاع على كتاب (شعب الإيمان) لأتحقق من ذلك فلم يطبع منه إلّا جزء يسير ـ على ما علمت ـ

٢ ـ ما جاء فى العبارة : (ولهذا قيل) يدل على أن هذا القول قديم ، قد يكون قبل البيهقى وقد يكون قبل ابن معصوم .

٣ ـ فى ذلك عبرة لمن يسارعون بالاتهام حين يجدون مشابهة بين قائل متأخر وقائل متقدم ما لم يكن قول المتقدم مشهوراً .

ومع الأسف لم يقتصر ذلك على الجزئيات ، بل تعداه إلى علوم بأكملها فقد زعم زاعمون أن العرب أخذوا فقههم عن الرومان ، ونحوهم عن السريان ، وبلاغتهم عن الإغريق ، وكل ذلك لمشابهات فى بعض الجزئيات .

٤ ـ وفيه تنبيه لمن يسارعون فينسبون آراء معينة لأنفسهم دون أن يجهد واجهدهم ليتبينوا هل قيل هذا الرأى قبلهم ، فيكثر عند بعض الكاتبين عبارات : وعندى ، وفى رأيى ، والذى أراه . وربما كان هذا الرأى لآخر وهو منه على طرف الثُّمام ولكنه لا يعنى نفسه فى البحث عنه ، ويخدع نفسه فينسب إليها رأياً قد يكون رآه ونسى أنه رآه .

٥ ـ إنما أثبت هذا النقل هنا لأمرين :

أولاً : أن أدعم به الرأى الذى رأيته .

ثانياً : تبركاً بمضمون هذه الكلمة الرائعة الجميلة : من بركة العلم نسبة كل قول إلى قائله .

لكيلا يعلم من بعد علمٍ شيئاً﴾ [1] .

[وأما بعد] :

فهذا بيان موجز لكلمة واحدة من هذه الكلمات الكريمة التى بدى بها نزول القرآن : **﴿خلق الإنسان من علق﴾**

وبعض المحدثين يذكر هذه الآيات التى بدىء بها نزول القرآن ليستدل بها على عناية القرآن بالعلم ، والأمر كذلك ، ولكن فى الآيات ـ كما رأينا ـ قضايا أخرى غير قضية العلم .

كما أن بعض المتحدثين يقف عند تكرار الفعل : «اقرأ» ليستدل بذلك على إشادة القرآن بالقراءة ، والأمر ـ أيضاً ـ كذلك ـ ولكن النظر العابر ينبه إلى أن كل القضايا التى ذكرت فى هذه الآيات أكدت بالتكرار .

فالألوهية تكررت فى الآيات تصريحاً وإشارة عشر مرات ، والنبوة أشير إليها أربع مرات ، وذكر فعل الخلق ، وفعل العلم مرتين .

ولو أنى أطلت نفسَ القول ووفيت المقام حقه فى شرح هذه الآيات الكريمة ولو أنى وقفت مع كل كلمة من كلماتها وقفة المتأمل الدارس لكان من ذلك كتابٌ بعيد ما بين الدّفتين .

وهكذا نرى أن هذه الآيات تضمنت أهم مقاصد القرآن : الألوهية والنبوة والإنسان والعلم .

وإذا كنا نستدل بالتكرار على التوكيد حق لنا أن نقول إن أهم هذه المقاصد هى الألوهية ، ثم النبوة ، ويستوى خلق الإنسان

---

(١) سورة الحج ـ الآية ٥ .

يكرهون ولادة البنات ، بل وصل الأمر ببعض قساة الجاهلية أن يدفن البنت فى التراب خوفاً من الفقر أو فراراً من العار .

كان العربى فى الجاهلية إذا بشر بمولود ذكر فرح واستبشر ، وأشرق وجهه ، وامتلأت جوانحه غبطة وسروراً ، وضربت المزاهر ، وغنت القيان ، وزفت التهانى .

ومما قيل : كان العرب لا يهنئون إلّا بغلام يولد أو بفرس تنتج أو بشاعر ينبغ *

أما إذا كان المولود أنثى فهناك تمتلىء النفوس غماً ، وتسوّد الوجوه حزناً وألماً ، وتضطرب القلوب بالبلابل والهموم .

وقد صور القرآن الكريم هذه الحال أبلغ تصوير ، ووصف الرجل حين يبشر بالأنثى أدق وصف ، فقال : **﴿وإذا بشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مُسودّاً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به أيمسكه على هونٍ أم يدسه فى التراب ألاَ ساء ما يحكمون﴾** (١) .

فالوجوه تبدو كالحة مما اعترى النفوس من شدة الغم ، والقلوب تكاد تتفتت من الغيظ والكرب ، والأب يتلمس مكاناً بعيداً يوارى فيه نفسه حتى لا يراه أحد ، وعاطفة الأبوة تتأرجح بين أن ترضى بما أصابها مع ما يلازمه من هوان ، وبين أن يدفن العار فى التراب .

وقد نتصور الأم فى هذه الحالة خائفة مذعورة ، تأسى لزوجها ، وتخشى على فلذة كبدها ، ولعلها تردد ما قالته أم

---

(١) سورة النحل ــ الآيتان ٥٨ ــ ٥٩ .

يتحدث صاحب الكتاب عن (براعة الاستهلال) فيكون مما قاله : (والعلم الأسنى فى ذلك سورة الفاتحة التى هى مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده) .

ثم ينقل عن (شعب الإيمان) للبيهقى قولاً ينتهى بسنده إلى الحسن ـ رحمه الله ـ خلاصته أن العلوم التى احتوى عليها القرآن ، وقامت بها الأديان أربعة هى :

معرفة الله وصفاته ، ومعرفة النبوات ، ومعرفة المعاد ، وعلم العبادات ، وعلم السلوك ، وعلم القصص .

قال : وكلها اشتملت عليها سورة الفاتحة فجمعت بذلك مقاصد القرآن ، وهذا هو الغاية فى براعة الاستهلال .

ثم قال ـ وهذا موضع العجب والسرور معاً ـ (وكذلك أول سورة «اقرأ» فإنها نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من براعة الاستهلال ؛ لكونها أول ما نزلت من القرآن ، فإن فيها الأمر بالقراءة ، والبدء فيها باسم الله ، وفيها الإشارة إلى علم الأحكام ، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب ، وإثبات ذلك ، وصفاته : من صفة ذات ، وصفة فعل . وفى هذه الإشارة إلى أصول الدين ، وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله : **﴿علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾** .

ولهذا قيل : إنها جديرة أن تسمى : (عنوان القرآن) ؛ لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة فى أوله[1] .

* * *

وهنا أمور أرى من الضرورى التنبيه إليها :

١ ـ اختلط علىّ كلام المؤلف فلم أدر هل هذه العبارات الأخيرة

---

(١) السيد على صدر الدين بن معصوم المدنى (١٠٥٦ ـ ١١٢٠هـ) فى كتابه : (أنوار الربيع فى أنواع البديع) .

وإذا كان الوأد قد مضى مع انبثاق فجر الإسلام ، وزوال ليل الجاهلية فقد بقيت رواسبه فى عصرنا . فى صورة جديدة من القتل ، يشمل البنين والبنات ، ذلك هو إسقاط الجنين قبل أن يكتمل (الاجهاض خوف العار أو الفقر ، أو رغبة فى المحافظة على جمال المرأة ، ومع الأسف فقد أباحته بعض القوانين الوضعية دون ضرورة ملحة ، فأتاحت للفتاة الانحراف من أوسع الأبواب ، وأنشأت مشكلة خطيرة أخرى حين يتعذر الاجهاض ، أو تأباه الأم ، تلك هى مشكلة أو مأساة اللقطاء .

ولو كانت شريعة الله هى الموجهة لسلوك الناس ، ولو كانت الضمائر الدينية حية ، ولو كان المجتمع فاضلاً لأمنا كل المخاطر الفردية والاجتماعية .

الفصل الرابع

ضلالة حـذر منها القـرآن

وإذْ كنا بصدد خلق الإنسان وحديث القرآن عنه اتجه البحث إلى ضلالة قديمة حديثة يتحتم على المجتمعات الراقية . والمسلمة ـ بخاصة ـ أن تتخلص منها .

سوّى الله تعالى بين الذكر والأنثى فى كثير من الحقوق والواجبات ، ولم يفرق بينهما فى الجزاء على العمل ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلّا مثلها وهم لا يظلمون**﴾ (١) .

﴿**من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ (٢) .

وقد امتنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الأبوين بكل من الابن والبنت وذكر القرآن الكريم أن كلا منهما هبة من الله ، وأن الله ـ وحده ـ هو الواهب ، فلا فضل للرجل فى إنجاب البنين ، ولا ذنب للمرأة فى ولادة البنات :

﴿**لله مُلك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور .أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير**﴾ (٣) .

ولكن فريقاً من عرب الجاهلية ومن جهلاء العصور المختلفة

---

(١) الأنعام ١٦٠ .

(٢) النحل ـ الآية ٩٧ .

(٣) سورة الشورى ـ الآيتان : (٤٩ ـ ٥٠) .

العقيدة ، والقضاء على كل لون من ألوان الوثنية وتوجيه القلوب والعقول ألا تطلب إلّا من الله ، ولا تتوكل إلّا عليه ، ولا ترجو النفع إلّا منه ، ولا تستعيذ من الشر إلّا به .

وفى سبيل ذلك أقام الأدلة على وجود الله تعالى ، وعلى وحدانيته ، وعلى اتصافه بكل صفات الكمال ، وتنزيهه عن كل صفات النقص ، وأكد أن الإنسان ـ أى إنسان ـ لا يملك لنفسه نفعاً ، ولا يستطيع أن يدفع عنها ضراً ، وأن أحداً لا يعلم الغيب مهما سمت منزلته فى الإيمان ، وعلا قدره فى التقوى ، ودعا إلى الإيمان بملائكة الله ، وكتبه ورسله ، وعدم التفريق بين أحد من رسله ، وإلى الإيمان بأن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى ، يبعث فيها الخلائق ، ويحاسبون على ما قدموا من خير ومن شر ، ويجازون على الإحسان إحساناً ، وعلى السوء سوءاً .

ثم كان المقصد الثانى هو تنظيم حياة الإنسان الذى سيكلف بهذه العقائد ، والذى من أجله نزلت الكتب ، وبعثت الرسل .

وفى سبيل ذلك لفت القرآن الإنسان إلى الكون ، وإلى نفسه ، يتبصر فيهما ، ويفكر فى كل ما يتصل بهما من دقائق الأمور وجلائلها : **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنَّه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد﴾**[1] .

فالله ـ سبحانه ـ حث الإنسان على النظر فى آفاق السماء ، وفى آفاق الأرض فعرف كثيراً من أحوال الكواكب ، والليل والنهار ، والأضواء والظلمات ، وفى القرآن من ذلك كثير ، كما حثه على النظر فى آفاق الأنفس فعرف الكثير أيضاً ـ من أسرارها .

والعلماء منذ بعيد يدرسون أحوال بدن الإنسان ، ويرون فى

(١) سورة فصلت الآية ٥٢ .

حمزة حين ولدت بنتاً فهجرها زوجها :

ما لأبى حمزة لا يأتينا	يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألّا نلد البنينا	والله ما ذلك فى أيدينا
ونحن كالأرض لزارعينا	ننبت ما قد بذروه فينا

وقد نهى القرآن الكريم عن هذا السلوك الذى يتنافى مع الفطر السليمة ، ولا يتفق وعاطفة الأبوة الكريمة : ﴿**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً**﴾[2] . ﴿**ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم**﴾[3] .

فلا الفقر ولا الخوف منه يسوِّغ لهم أن يقتلوا أولادهم .

ومن روائع القرآن ـ هنا ـ أنه حين كان الفقر حقيقة واقعة بالآباء قدم رزقهم على رزق الأولاد : ﴿**نحن نرزقكم وإياهم**﴾ وحين كان الأمر مجرد خشية من الفقر قدم الأبناء على الآباء : ﴿**نحن نرزقهم وإياكم**﴾ .

وقد حذر القرآن من الوأد ، وأخبر أن الموءودة ستسأل يوم القيامة عن الذنب الذى قتلت من أجله : ﴿**وإذا الموءودة سُئلت * بأى ذنب قتلت**﴾ .

وهو سؤال ـ حينذاك ـ لا يطلب له جواب إلّا الخزى والخسران والعذاب الأليم للوائدين .

---

(١) كان العرب يكنون الرجل بالولد وإن لم يكن له ، كما كانوا يكنون المرأة أيضا ذلك كما قيل : (وكنيتها عمرو وليس لها عمرو) .

(٢) الاسراء ـ الآية ٣١ .

(٣) الأنعام ـ من الآية ١٥١ .

وانهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ولكن كثيراً من هذا الحديث له صلة بالإنسان ، فنهم الحفظة الذين يحفظونه ، ومنهم الذين يكتبون حسناته وسيئاته ، ومنهم الذين يستغفرون له ، فصلتهم بالإنسان قوية ، ولكنهم ــ مع ذلك ــ خلق آخر من خلق الله تعالى يختلفون عن الإنس وعن الجن .

على أن الأمر ــ كما سبق أن قلت ــ إنه لا يمكن فى كتاب أو كتب استقصاء كل ما يتعلق بالإنسان فى القرآن ، وإن هذا البحث ــ كغيره ــ يتناول شئوناً محددة من شئون الإنسان لعلها ــ فى نظره ــ أبرز شئونه التى تحدث عنها القرآن .

حتى هذه الشئون التى تناولها لم يوفها حقها ، ولم يحط بكل جوانبها ، وكيف يستطيع وفى كل آية عرض لها وراء ما فهمه منها خفايا ومزايا سيوفق الله ــ سبحانه ــ من يتنبه إلى بعض منها فأسرار كلام الله تعالى لا يحيط به إلّا الله وحده .

وإذا كان العلماء تنبهوا إلى أن فى آيات القرآن ما يحتمل مائة وجه ــ كما ذكر الزركشى فى البرهان ــ فكيف يجرؤ باحث سيما إذا لم يكن من أرباب هذا الشأن إلى أن يوقع فى وهمه أنه قال الكلمة الفاصلة فى آية من آيات القرآن ، بل فى كلمة واحدة من كلماته .

نعم . القرآن عربى مبين ، وكل عالم بلغة العرب يدرك معانى المفردات ولكن ــ مما لا شك فيه ــ أن وراء هذه المعانى اللغوية معانى أخرى ، وإيحاءات كثيرة ، ومرامى بعيدة يدرك منها البشر على قدر أفهامهم ، وتبقى هذه المعانى والمرامى يدرك منها العلماء فى كل عصر بعضاً .

وكلما تقدمت الدراسات العلمية والنفسية والاجتماعية ظهر للباحثين فى كتاب الله تعالى الجديد ، كما يظهر لهم الجديد من الكون

الباب الثالث

الفصل الأول

مقاصـــد القــرآن الكريم

يقول الله تعالى : ﴿**ما فرَّطنا فى الكتاب من شىء**﴾ [١] ويقول سبحانه : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾ [٢] ويقول عزّ وجلّ : ﴿**وجعلنا الليل والنَّهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربِّكم ولتعلموا عدد السِّنين والحساب وكل شىء فصَّلناه تفصيلا**﴾ [٣] .

هذه الآيات الثلاث تفيد أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ أنزل القرآن الكريم للغاية التى أرادها من إنزاله ، وهى هداية البشرية الضالة ، وإنقاذها مما تردت فيه من ضلالات وأوهام وأباطيل ، وعلاجها مما حل بأبنائها من أمراض الجهل والسفه ، وطغيان الأقوياء ، وطيش الحمقى والعابثين ، وليرسم للناس الطريق القويم لحياة فاضلة يسودها العدل والحرية والمساواة ، وتزينها الفضائل ، وتسمو بها مكارم الأخلاق .

وكان المقصد الأول فى القرآن لبلوغ هذه الأهداف هو تصحيح

---

(١) سورة الأنعام ــ الآية ٣٨ .
(٢) سورة النحل ــ الآية ٨٩ .
(٣) سورة الاسراء ــ الآية ١٢ .

الفصل الثاني

صيانة الإنسان
من أهم مقاصد القرآن

خلق الله الإنسان ، واستخلفه فى الأرض ، ينفذ أحكامه ، ويطبق شرائعه ، وكلفه بالسعى فيها وعمارتها ، ومنحه العقل الذى يدرك به بعض أسراره فى كونه ، إذا أطال النظر ، وأمعن التفكير ، وسخَّر له كثيراً من مخلوقاته .

ولو تركه ونفسه تفتك به الطبيعة ، وتلعب به الأهواء ، فيسير على غير هدى ، وتتصارع مصالح الناس بعضهم مع بعض ، فيفتك قويهم بضعيفهم ، ويأكل غنيهم فقيرهم .

لو تركه هكذا ـ دون أن يضع لكل داء دواءه ـ لما امتدت حياته على هذه الأرض ، ولكانت ـ إن قدر لها أن تمتد ـ أشبه بحياة الوحوش فى الغابات .

ولكنه ـ سبحانه ـ وهبه من القوى النفسية والبدنية ، وشرع له من التكاليف الدينية ، ومكّنه من السيطرة على قوىً فوق قوته . جعل له من ذلك ما يحفظ عليه نفسه ودينه وعقله وعرضه .

ثم أرشده إلى سنن كونية لا بقاء للفرد ولا للجماعة إلّا بالخضوع لها ، والاهتداء بهديها ، وجعل من أخطر الأمور عليه أن يتمرد عليها ، أو يتجاهلها .

وقد حفلت آيات القرآن الكريم بكل ما يحتاجه الإنسان فى

تركيبه العجائب والغرائب ، ويدرسون الأحوال المعنوية للأنفس ، وكلما تعمقوا فى الدرس ازدادوا بالله إيماناً .

كل هذا الذى أشرت إليه بينه القرآن وفصَّله ، وما ترك أمرا يحتاج إليه الإنسان فى معاشه ومعاده إلّا بينه بصريح اللفظ ، أو بالإشارة والإيماء ، أو باللزوم والاقتضاء .

ومن الواضح أن العقيدة وما يتعلق بها إنما تكون من الإنسان فالحديث عنها حديث عن أخص شئون هذا الكائن البشرى ، ومن هنا يصح القول إن المقصود من كل ما فى القرآن إنما هو الإنسان ، ولكنى سأفصل بين ما فى القرآن من إلهيات وغيبيات ، وبين ما يتعلق بالإنسان وحياته ، وإذا أشرت إلى العقيدة فإنما أشير إليها لأبين مدى حاجة الإنسان إليها ، ولأكشف عن آثارها فى حياة الفرد والجماعة ، وهذا ما أردته من هذا البحث .

فإذا قيل إن جميع ما فى القرآن هو لخير الإنسان سواء فى ذلك عقائده وعباداته وتشريعاته فهذا صحيح ، ولكن عند تفصيل القول يمكن أن نتحدث عن الإلهيات وكل ما يتصل بها من أدلة وبرا ، وعن السمعيات وكل ما يتصل بها أيضاً ، ثم عن الإنسان وما يتصل بخلقه وطبائعه وميوله ، وسلوكه وأخلاقه ، ونجد ـ حينئذ ـ فواصل مميزة لكل مقصد من هذه المقاصد القرآنية .

ولا ننسى أن فى القرآن جانباً يتصل (بالجن) ، وهذا الجانب ـ كما هو واضح غير الجانب الإنسانى .

الجن خوطبوا فى القرآن كما خوطب الإنسان ، والجن استمع منهم نفر إلى القرآن صرفهم الله تعالى إلى النبى ليستمعوا ، وفى القرآن سورة مستقلة عن الجن .

وفيه حديث عن (الملائكة) الذين لا يعصون الله ما أمرهم ،

أما الأمن على النفس فهو حاجة الإنسان الأولى ، وقد عُنى القرآن به أتم عناية ، وجاءت آياته فيه حاسمة قاطعة .

فقد نهى ـ وشدد فى النهى ـ أن يقتل إنسان إنساناً ، وتوعد على ذلك بأشد العقوبة ، فى قوله تعالى : **﴿ومن يقتُلْ مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾** [1] .

وفى ذلك تهديد شديد ، وإيعاد رهيب ، فالإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيانه [2] وهل هناك أقسى من هذه العقوبات : جهنم ، والخلود فيها ، وغضب الله ، ولعنته ، والعذاب العظيم ؟ .

هذا عذاب الآخرة ، أما فى الدنيا فقد أوجب القرآن القصاص ، وترك لولى الدم الخيار : أن يقتص أو يعفو . وهو حين يصر على القصاص لا يمكن أن يقف دون رغبته أحد ، فقد جعل الله له سلطاناً لا يعارضه سلطان حاكم أو غيره . قال تعالى : **﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً﴾** [3] . وبهذا السلطان ، وبهذا الوعد بالنصر كانت لولى الدم القوة الغالبة على أن يأخذ حقه ممن اعتدى بالقتل على صاحبه ، فلا مفر للقاتل من القتل إذا أصر ولى الدم ، وهذا ما يجعل كل من همّ بقتل إنسان يطيل التفكير قبل الإقدام على هذا الفعل الشنيع ، وصدق الله العظيم : **﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾** [4] .

---

(١) سورة النساء ـ الآية ٩٣ .

(٢) روى النسائى والترمذى : (لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا) .

(٣) سورة الإسراء ـ من الآية ٣٣ .

(٤) سورة البقرة ـ الآية ١٧٩ .

ومن النفس ، ومن حياة المجتمعات .

وكتاب الكون ـ مع كثرة ما بحث الباحثون ، ودرس الدارسون ـ لايزال فيه الكثير الكثير مما لم يهتد العقل البشرى إليه ، وكل يوم تطالعنا أبحاث العلماء بما لم يخطر لنا على بال ، بل ربما يكاد يلحق بالخيال ، وهكذا كل صنع الله تعالى ، يدرك العلم منه اليسير ، ويبقى الكثير تدركه الأجيال بعد الأجيال ، ويبقى أخيراً ما يستأثر الله ـ سبحانه ـ بعلمه .

قال الجاحظ : (لأن الإنسان وان أضيف إلى الكمال ، وعرف بالبراعة ، وغمر العلماء ، فإنه لا يكمل أن يحيط علمه بكل ما فى جناح بعوضة أيام الدنيا ، ولو استمد بقوة كل نظَّار حكيم ، واستعار حفظ كل بحاث واع ، وكل نقاب فى البلاد ، ودراسة للكتب)[1] .

---

(١) كتاب الحيوان جـ ٥ ص ٢٠٠ ، وغمر العلماء أى فاقهم .

تعالى : ﴿**ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلّا بالحق**﴾[1]

والحق الذى ورد فى هذه الآية هو ما فُسِّر فى قول النبى ـ ﷺ ـ : (**لا يحل دم امرىء مسلم إلّا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزناً بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق**)[2] .

ومن الحق أن يقتل قاطع الطريق ، جاء ذلك فى قوله تعالى : ﴿**إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ذلك لهم خزىٌ فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم**﴾[3] .

وهناك أسباب أخرى توجب القتل ، ولكنه القتل بالحق .

وإذا كان القرآن قد نهى ، وشدد فى النهى عن القتل العمد فإنه أوجب فى القتل الخطأ الدية والكفارة حتى يكون الإنسان يقظاً دائماً فيحترس كل الاحتراس أن يقتل إنساناً خطأ .

وقد تعبس الحياة فى وجه إنسان ، وتتراكم عليه الهموم والأحزان ، فيضيق صدراً بالعيش ، ويحاول التخلص من الحياة ، فيتردى من جبل أو يجأ نفسه بحديدة ، أو يحسو سمّاً قاتلاً .

والقرآن الكريم وضع المعالم والصُّوى على الطريق الذى إذا سلكه الحىّ لا يصل إلى الحال التى يفضل عليها الموت ، فإذا وصل إليها فالقرآن صريح فى النهى عن إنهاء المرء حياته بيده ، وذلك بعض ما يستفاد من قوله تعالى : ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً.ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيرا**﴾[4] .

---

(١) سورة الأنعام من الآية ١٥١ ، وسورة الإسراء من الآية ٣٣ .
(٢) رواه الترمذى فى الفتن ، والدارمى فى الحدود والنسائى فى القسامة .
(٣) سورة المائدة ـ الآية ٣٣ .
(٤) سورة النساء ـ من الآية ٢٩ ، والآية ٣٠ .

حفظ ما تقوم به حياته ، وما يضمن للجنس البشرى النمّو والبقاء .

ولم يكتف القرآن بالحدود الدنيا التى لا بد منها فى حفظ حياة الإنسان ، ونموها وازدهارها ، بل أرشد إلى ما به كمالها ، وسنّ له من الأوامر والنواهى والآداب ما يجعل هذه الحياة سعيدة ، كاملة لو اتبع السنَّنَ اللا حب ، وسار فى الطريق المستقيم .

ولكن كثيراً من بنى البشر أبوا الا أن يخرجوا عن طاعة الله إلى طاعة الأهواء ، والنزوات والشهات ، فساءت ـ فى كثير من العصور حياة الفرد ، وحياة الجماعات ، وكان الأمر كما قال تعالى : **﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**[1] .

١ ـ المحافظة على النفس :

حاط القرآن الكريم النفس البشرية بسياج منيع من التعاليم لو انتهجها الأفراد والجماعات لعاش كلٌّ فى أمن وسلام .

والأمن على النفس أحد ثلاثة أمور نبه الرسول الكريم إلى أنها تعدل الدنيا وما فيها ، وذلك حيث يقول ـ ﷺ ـ : **(من أصبح منكم آمناً فى سربه ، معافى فى جسده ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها)**[2] .

والمحافظة على النفس التى نتحدث عنها تتضمن الحديث عن هذه الأمور الثلاثة : الأمن من الغوائل التى تهدد الإنسان لتزهق روحه ، والعافية التى ينشدها المرء لبدنه ، والقوت الذى يحفظ عليه حياته .

---

(١) سورة النحل ـ من الآية ١١٨ .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجة ، كل منهما فى باب الزهد .

حائضاً أو نفساء ، فيكفى أن يغسل المسلم أعضاءه الظاهرة خمس مرات فى اليوم لينقيها من الأتربة والجراثيم ، وأن يصب الماء على جسده فيعمه كله إذا كان عنده ما يوجب الغسل .

ولعل من أروع ما قرأت أخيراً بحثاً قام به أحد الدارسين عن فائدة الاستنشاق فى الوضوء والغسل ، فقد أثبت أن استنشاق الماء ، ومس الأنف به يقتل تسعة أنواع من الجراثيم ، قال : وهذه الجراثيم تتجدد كل خمس ساعات .

ومازال العلم يكشف كل يوم عن جديد نجزم بأن القرآن الكريم يؤيده ولا ننحرف فنقول إنه يؤيد القرآن كما يحلو لبعض الغافلين ، والمفتونين بالعلم .

ولا نطيل فى شرح ما يعود على صحة الإنسان من النظافة ، فما أظن أحداً يجهل ذلك ، ولو كان يعيش فى شعاف الجبال ، أو فى متاهات الغابات .

ومما أوجبه القرآن للحفاظ على صحة الإنسان الاعتدال فى الطعام والشراب ، جاء ذلك فى قوله تعالى : ﴿**يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنَّه لا يحب المسرفين**﴾ [1] .

فالإسراف فى الطعام أحد المعاول التى تحطم جسم الإنسان ، وقد أثبت الطب الحديث العلاقة الوثيقة بين البدانة التى تنشأ ـ عادة ـ عن الإكثار من الطعام كمّاً ونوعاً ، وبين أمراض القلب والمعدة والكلى والكبد .

ومما قاله بعض الحكماء : إن الناس يحفرون قبورهم بأسنانهم .

---

(١) سورة الأعراف ـ الآية ٣١ .

فى القصاص حياة عظيمة : حياة لمن يُراد قتله ، ذلك أن صاحبه إذا علم أنه حين يقتل يقتص منه بالقتل يتحرج ويكف ، وحياة لمن يريد أن يقتل ، حياة له نفسه ، لأن كفه عن القتل ينجيه من القصاص ، وحياة لآخرين ، فكثيراً ما تهدأ نفوس أقرباء القتيل وعشيرته إذا اقتص من القاتل ، أما إذا اقتص من القاتل ، أما إذا أفلت من يد الحاكم ، أوكان هناك من القوانين ما يحميه من القتل فإن أولياء الدم ـ فى الكثير الغالب ـ يأخذون حقهم بأيديهم ، وبذلك يُفتح الباب واسعاً للثارات ، وتعم المجتمع ألوان من الفوضى والاضطراب ، قد تستمر عشرات السنين ، وكم يقتل فيها من الأبرياء ، ولا ذنب لهم إلّا أن القاتل الأول أفلت من القصاص ، إن كان هذا ذنبهم ، وفى الحقيقة هو ذنب الحاكم أو ذنب المجتمع ، أو ذنب أولئك الذين يدافعون عن القاتل ، وهم على يقين أنه قاتل ، يستعينون بذرابة الألسنة ، وبما تحتمله بعض القوانين من تفسيرات ، وأولا وأخيراً يستعينون بضمائرهم الخربة ، ونفوسهم المريضة ، وشهوتهم العارمة إلى المال .

ولا أدرى لماذا تنفر بعض النفوس من عقوبة الإعدام ؟ .

أليس القاتل قد اعتدى على نفس حرم الله قتلها فأزهقها ؟ !

أليس من أبسط أنواع العدالة أن يلقى القاتل نفس المصير الذى صار إليه إنسان لا ذنب له ؟

ألسنا نرى فى كثير من المجتمعات الآثار السيئة التى تنشأ عن تهاون القوانين أحياناً مع القتلة ؟

إنّ الله ـ سبحانه ـ قد كتب علينا القصاص فى القتلى ، ومع ذلك أباح لولى الدم أن يعفو ، وهذا منتهى السماحة من الإسلام .

وقد نهى الله عزّ وجلّ فى آيات أخر عن القتل ، ومن ذلك قوله

نقص كمية الدم الواصلة إلى القلب ، وبالتالى تقلل من كفاءته ، وعلى ذلك ، ونظراً لقلة كفاءة القلب ، والتهاب الأعصاب أصبح يوصى الآن بعدم إعطاء الخمور لمريض الذبحة الصدرية ، بعكس ما كان شائعاً ومعروفاً ..

ولكن الخطر الأكبر للخمور يتركز على عضلة القلب ... فالخمور بما تحدث من مواد سامَّة تتسبب فى تكسير الخلية فى جسم الإنسان ، وهذا يحدث فى خلايا عضلة القلب ، كما يحدث فى خلايا عضلات جسم الإنسان الأخرى ، ولكن خطرها يظهر بشكل أكبر على عضلة القلب لأهميتها ، وخطورة الدور الذى تؤديه للإنسان .

هذه الحقيقة اكتشفها الطبيب الانجليزى الدكتور (إيفانز) فى أوائل الستينات .

ولقد أثبتت التجارب العلمية التى أجريت على القرود والأرانب أن الخمر فى بداية تعاطيها تؤدى إلى تكسير عضلة القلب ، وأنها تدمّر المادة الحية فى الخلية .

وإذا وصل الأمر إلى مرحلة الإدمان فإنه يحدث بعد ذلك تضخم فى العضلة وتضخم فى القلب نفسه الذى يتضاعف حجمه إلى أربع ، وربما إلى خمس مرات حجمه الطبيعى ... أى إن حجم القلب يصل فى حالة تضخمه إلى حجم قلب بقرة ، وهو الذى يبلغ فى حجمه الطبيعى حجم قبضة الإنسان)[1] .

كذلك حرم الإسلام الزنا ، وقد جاء تحريمه فى أكثر من آية ،

---

(١) الدكتور جلال السعيد ـ صحيفة الاهرام بتاريخ ١٩٧٥/٨/٦م ـ مع تصرف يسير .

وجاء فى القرآن نهى الإنسان أن يعرض نفسه لمواطن الهلكة ، فعليه إذا ظن أن فى مكان ، أو فى عمل ، ما يعرضه لهلاك النفس ، عليه أن يبتعد عنه : **﴿وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾**[1] .

فالإنفاق فى سبيل الله ـ ومنه الجهاد ـ يقوى شوكة الأمة ، ويخيف أعداءها ، وإمساك المال ، والضَّن به على ما يعود على الأمة بالخير فى السلم والحرب ـ يضعفها ، ويطمع فيها أعداءها المتربصين بها ، ويعرضها للهلاك .

هذا سياق الآية ، ومع ذلك يحتمل هذا النهى : **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** تعريض النفس لخطر محقق دون أن يكون مع الإنسان ما يدافع به عن نفسه .

وقد أثبت علماء الاجتماع ، وعلماء النفس أن كثيراً من أسباب الانتحار فى هذا العصر يرجع إلى الإدمان على المخدرات ، ومع أن هذا العمل محرم شرعاً لأنه يؤثر على العقل ، ويقلل من نشاط الفرد فى العمل لخير نفسه ، ولخير أمته مع ذلك هو داخل تحت هذا النهى : **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** ، لأنه يكاد يكون من المحقق أن نهاية مدمن هذه الآفات إما المرض المقعد ، وإما الجنون وإما الانتحار ، وفى كل ذلك إلقاء للنفس فى التهلكة .

وأما العافية فإن فى تعاليم القرآن ما يحفظها وافرة على من ينفذ هذه التعاليم ، ولعل من أوضح ذلك تلك الطهارة التى أوجبها الشرع الإسلامى للدخول فى الصلاة ، ولقراءة القرآن ، ودخول المسجد إذا كان عند المسلم ما يمنعه منهما من جنابة ، أو كانت المرأة

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ١٩٥ .

عضوية عالجها القرآن الكريم ، وطبٌ لاقتلاعها من أعماق النفس الإنسانية .

دعا إلى الصبر على ما يصيب الإنسان من مكاره الحياة ، ورغب فيه ، ووعد الصابرين بالثواب العظيم .

وقد تكررت كلمة الصبر فى القرآن الكريم نحو سبعين مرة ، وإذا لاذ الإنسان بالصبر عند المصائب هدأت نفسه ، وسكنت جوارحه ، أما الجزع فإنه يمزق النفس ويشيع فيها اليأس ، ويجر عليها الويلات ، ولذلك نهى القرآن عنه ، فرحمة الله واسعة ، ولطفه بعباده لا حد له .

ومما جاء على لسان يعقوب ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ قوله لبنيه ـ كما حكاه عنه القرآن : **﴿ولا تيأسوا من رَوْحِ الله إنه لا ييأسُ من رَوْحِ الله إلّا القوم الكافرون﴾**[1] .

وجا على لسان سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما حكى عنه القرآن أيضاً ـ **﴿ومن يقنط من رحمة ربِّه إلّا الضَّالون﴾**[2] .

ولم ينْهَ القرآن عن اليأس فيما يتعلق بأمور الدنيا فحسب ، بل نهى عن القنوط من رحمة الله ، مهما أسرف العبد المؤمن على نفسه فى الخطايا ليفتح للمذنبين أبواب الأمل فى العفو عنهم ، وليمهد لهم الطريق إلى الإقلاع عن ذنوبهم ، والرجوع إلى الله : **﴿قل يا عبادى الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرّحيم﴾**[3] .

والثابت من نصوص القرآن أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعد

---

(١) سورة يوسف ـ الآية ٨٧ .

(٢) سورة الحجر ـ الآية ٥٦ .

(٣) سورة الزمر ـ الآية ٥٣ .

يريد أنهم يسرفون فى الطعام فيصابون بشتى الأمراض التى تسلمهم ـ غير مطمئنين ـ إلى قبورهم .

وقد جاء فى القرآن الكريم ـ حفاظاً على صحة الإنسان ـ تحريم الخبائث ، ومنها الخمر التى تسمَّى أم الخبائث ، والقرآن يسميها رجساً : ﴿**يأيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾[1] .

وكلمة (الرجس) تدل على منتهى القبح والخبث ، والضرر والشر .

وقد أكثر الأطباء القول فى بيان الأضرار التى تنشأ من تناول الخمر ، وآخر بحث قرأته فى ذلك ما نشره بعض الأطباء فى إحدى الصحف المصرية ، وقد جاء فيه : (اتضح للأطباء أن للخمر أخطاراً كثيرة على القلب ، فهى تخفض كفاءة القلب بتأثيرها المباشر على عضلة القلب ، كما أنها ـ يعنى الخمر ـ تسبب اختلافاً فى ضربات القلب عند بعض الناس ... ومن المعروف أن اختلاف ضربات القلب يؤدى بدوره إلى تقليل كفاءة عمل القلب .. هى ـ أيضاً ـ ترفع نسبة الدهنيات فى الجسم ... ومن المعروف طبياً أن ارتفاع نسبة الدهنيات فى الجسم يؤدى إلى ترسيب (الكولسترول) فى الشرايين ، وهو يؤدى بدوره إلى تصلب الشرايين الذى ينشأ عنه بالتالى أمراض القلب ، مثل الذبحة الصدرية والجلطة ، ولقد ثبت هذا علمياً بعد تجارب على الحيوانات والإنسان .

كما أن الخمر تحدث هبوطاً فى ضغط الدم لالتهاب الأعصاب الذى عادة ما يحدث بين مدمنى الخمر ... وهذا قد يؤدى بدوره إلى

---

(١) سورة المائدة ـ الاية ٩٠ .

الفلاسفةُ فى البحث عنها .

أما القوت فقد حث القرآن الكريم الإنسان فى آيات كثيرة على السعى لتحصيله ، وحذر الإسلام من التواكل والتوانى فى السعى اعتماداً على فضول الآخرين ، أو حرماناً للنفس ، حتى ولو كان القعود للاشتغال بعبادة الله .

فتى أدى المسلم ما فرض عليه لزمه السعى : **﴿فإذا قضيت الصّلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾**[1] .

﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[2] .

قال رجل لمعروف الكرخى : يا أبا محفوظ ؟ أتحرك لطلب الرزق أم أجلس ؟

قال : لا . بل تحرك فإنه أصلح لك .

فقال : أتقول هذا ؟

قال : ما أنا قلته ، ولكن الله عزّ وجلّ أمر به . قال لمريم ـ عليها السلام ـ : **﴿وهزِّى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيَّاً﴾**[3] ، ولو شاء لأنزله عليها .

ويقول أبوسليمان الدارانى ـ أحد فقهاء العباد ـ وتروى الكلمة لسهل الزاهد : (ليس العبادة عندنا أن تصُفَّ قدميك وغيرك يقوت[4] لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد .

(١) سورة الجمعة ـ الآية ١٠ .
(٢) سورة الملك ـ الآية ١٥ .
(٣) سورة مريم ـ الآية ٢٥ .
(٤) يقوت لك : يحصِّل لك طعامك .

وأوجب الإسلام عقوبة على الزانى تصل إلى حد الرجم بالحجارة حتى الموت ، للزانى المحصن (المتزوج) إذا ثبتت جريمته ثبوتاً مؤكداً بالإقرار ، أو بشهادة أربعة رجال عدول ، مع ثباتهم على الشهادة .

يقول الله تعالى : **﴿ولا تقربوا الزِّنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾** [1] ، وفى آية أخرى : **﴿الزانى لا ينكح إلّا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلّا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾** [2] .

ووصف الله سبحانه وتعالى (عباد الرحمن) بأسمى الأوصاف وأنبلها وأروعها وكان منها أنهم لا يزنون ، ثم عقب سبحانه هذا الوصف بالعقاب الشديد الذى أعده لمن يرتكبون هذه الفاحشة ، فقال : **﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذابُ يوم القيامة ويخلد فيه مهانا﴾** [3] ثم استثنى من هذا العذاب من تاب وآمن وعمل صالحاً .

ولتحريم الزنا حكمٌ كثيرة منها المحافظة على صحة الإنسان ، وغير خافٍ على أحد ما قد ينشأ عن هذا ، الذى سماه القرآن (فاحشة) ووصفه بأنه (ساء سبيلا) من أمراض ، بعضها يفتك بالحياة ، وبعضها يترك صاحبه يتقلب على أشواك الألم ، وبعضها يؤثر على صحة الجنين فيخرج مشوَّهاً ويعيش حياة ــ إن قدرت له الحياة ــ بائسة كئيبة .

.

والقلق واليأس والإفراط فى الحزن التى قد تسبب أمراضاً

---

(1) سورة الاسراء ــ الآية ٣٢ .
(2) سورة النور ــ الآية ٣ .
(3) سورة الفرقان ــ من الآية ٦٨ ، والآية ٦٩ .

آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبى - ﷺ - فقال : **(مابال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ؟**

ولكنى أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى)[1] .

وكيف يمتنع الإنسان عن الطيبات ، والله سبحانه وتعالى يقول : **﴿قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾**[2] .

- وكيف يمتنع من الطيبات من يدعى التصوف والله سبحانه قد أمر أنبياءه بالأكل منها : **﴿يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم﴾**[3] .

فسنة الإسلام - كما أوضحها القرآن وأحاديث الرسول - التمتع بالطيبات - مع مراعاة حقوق الآخرين - فإذا وجد الإنسان طعاماً من حلال - وهو المراد بالطيّب - فعليه أن يأكل منه ، اللهم إلّا أن يؤثر فقيراً أو قريباً ، ولكن ينبغى أن يتجنب الإسراف - كما جاء فى آية الأعراف ، ويتجنب الخبيث ، وهو الذى عبرت عنه آية المائدة بالاعتداء ، وإذا لم يجد صبر وتعفف ، واكتفى بما يقيم أوده ، وهكذا كان يفعل بعض صحابة رسول الله - ﷺ - ، - ورضوان الله عليهم - كما أثنى عليهم القرآن الكريم : **﴿للفقراء الذين أُحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً﴾**[4] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) سورة الأعراف - من الآية ٣٢ .
(٣) سورة (المؤمنون) - الآية ٥١ .
(٤) سورة البقرة - الآية ٢٧٣ .

بغفران الذنوب جميعاً لمن يشاء الغفران له ـ ما عدا الشرك فإنه لا يغفره ـ : ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [1] .

ومما يبعد عن الإنسان الحزن القاتل أن يكون المؤمن على يقين من أن كل ما يصيبه بقضاء الله وقدره ، وأن ذلك فى كتاب الله منذ الأزل : ﴿**ما أصاب من مصيبةٍ فى الأرض ولا فى أنفسكم إلّا فى كتاب من قبل أن نبرإها أن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يُحب كلَّ مختال فخور**﴾ [2] .

وفى فطرة الإنسان أن يفرح للخير يناله ، ويحزن من الشر يصيبه ، فليس المراد بالأسى والفرح هنا هذين الشعورين مطلقاً ، بل المراد الحزن الشديد الذى يخرج الإنسان عن طبيعته ، والفرح المفرط الذى يؤدى إلى البطر .

ومازال الباحثون من شرقيين وغربيين يؤلفون الكتب ، وينشرون الأبحاث يثبتون فيها أن السعادة الحقيقية فى سكينة النفس وهدوئها ، وميلها إلى التفاؤل ، وبعدها عن التشاؤم ، ويؤكدون أن القلق من أعدى أعدا الحياة .

وهذا ما أكده القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً ، لا يأس ولا قنوط ، ولا أسى على مافات ، ولا مبالغة فى الفرح بما يناله الإنسان من خير ، بل اعتدال وهدوء وصبر ورضا ، وأمل فى رحمة الله ، تكشف الضر فى الدنيا ، وتغفر الذنوب فى الآخرة ، ومادامت النفس راضية ، والأمل مشرقاً رحيباً ، فالحياة جميلة ، والعيش سائغ هنيء والعافية موفورة ، وفى ذلك كل السعادة التى حار

---

(١) سورة النساء ـ الآية ٤٨ ، والآية ١١٦ .

(٢) سورة الحديد ـ الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

وأقام القرآن الأدلة الكثيرة الحاسمة على وجود الله تعالى ووحدانيته : ﴿**لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا**﴾ [1] . ﴿**ما اتَّخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كلُّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عمَّا يصفون**﴾ [2] .

وحذر الرسول من أن يترك المؤمن دينه ، وأوجب عليه القتل ، فقال : **(من بدّل دينه فاقتلوه)** [3] .

فالإنسان ذو حرية مطلقة فى أن يختار الدين الذى يؤديه إليه عقله ، ولا إكراه فى الدين ـ كما جاء فى نص القرآن ـ ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ـ كما جاء فى نصه أيضاً ، ولكن بعد أن يدخل الإسلام عن تفكير واقتناع لا يباح له أن يرتد عنه ، حتى لا يكون الدين ألعوبة يتلهّى بها الفارغون ، وحتى لا يؤثر على غيره ممن دخلوا فى هذا الدين .

ولقد قامت الأدلة القاطعة على أن الدين الحق هو دين الإسلام ، وأن من يبتغى ديناً غيره فلن يُقبل منه ، ومع ذلك لم يؤمر الرسول بأن يكره أحداً على الدخول فيه ، أما إذا دخل طائعاً مختاراً عن بحث ونظر وفكر فلا يجوز له أن يتنكر للحق بعد أن وضح له ، ولا أن يطعن المسلمين فى أكرم ما يعتزون به ، ويحرصون عليه .

وقد طلب القرآن ممّن يدخلون فى الإسلام أن يبعدوا الله مخلصين له الدين ، وألا يشركوا به أحداً ، فلا خالق ولا رازق ولا محيى ولا مميت غير الله ، وليس فى قدرة عبد كائناً من كان أن ينفع

---

(١) الأنبياء ٢٢ .

(٢) المؤمنون ٩١ .

(٣) أخرجه البخارى فى باب الجهاد وغيره .

ويرى الشعرانى ، وكلمته حق ، يرى أن الصانع أفضل من العابد ، وهو يريد العابد الذى ينقطع للعبادة ، ويكثر من النوافل بعد أداء الفرائض ، ويشتغل بالأوراد والأذكار .

ومن أقواله : ما أجمل أن يجعل الخياط إبرته مسبحته ، وأن يجعل النجار منشاره مسبحته .

ويؤيد ذلك ، ويؤكده قول عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : إنى أرى الرجل فيعجبنى ، فإذا قيل لا حرفة له سقط من عينى .

• فإذا سعى الإنسان فى الأرض ، وحصل على القوت فعليه أن يطعم منه ، وأن يتناول ما يحفظ به بنيان جسمه ، أما حرمان النفس ، والإعراض عن الطيبات ، والالتذاذ بألم الجوع ـ والقوت ممكن ـ فليس ذلك من سنن الإسلام ، ولا من تعاليم القرآن .

فالله تعالى يقول : **﴿يأيها الذين آمنوا كلوا من طيِّبات مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم اياه تعبدون﴾**[1] .

﴿يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحبُّ المعتدين . وكلوا ممَّا رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾[2]

وقد عاب بعض العلماء المحققين على بعض المتصوفة الذين يحرمون أنفسهم الطيبات ، يرون أن فى هذا الحرمان تهذيباً للنفس ، ورياضة على الطاعة ، ورضا لله .

وقد روى عن النبى ـ ﷺ ـ فى هذا الشأن أحاديث ، منها أن ناساً من الصحابة أرادوا المبالغة فى العبادة : (فقال بعضهم : لا

(١) سورة البقرة ـ الآية ١٧٢ .
(٢) سورة المائدة ـ الآيتان ٨٧ ، ٨٨ .

كل ذلك تضمنه قول الله تعالى : ﴿**فاعبد الله مخلصاً له الدين**﴾[1] ، وهكذا فهم المسلمون المستنيرون دينهم الذى وجههم القرآن إلى جلائله ودقائقه ، وأوضح لهم تعاليمه وشرائعه .

٣ ـ المحافظة على العقل :

أعظم ما أعطى الله للإنسان العقل . هذا الجوهر النفيس الذى ميزه به عن الحيوان ، فإن الإنسان بلا عقل بهيمة من البهائم ، بل إن البهيمة ذات نفع ، وفاقد العقل لا نفع يرجى منه ، وما ينتظر منه إلّا الإضرار بنفسه وبالآخرين ، وبقدر ما تكون درجةَ العقل عند الإنسان يكون قدره فى هذه الحياة .

لذلك هدى الله الإنسان ـ بعد أن وهبه العقل ـ إلى ما ينمى عقله ، وإلى ما يحفظه عليه ، وإنما ينمّى العقل العلم الذى ينشأ عن التفكير والتطلع إلى عجائب صنع الله فى الأكوان وفى الأنفس ، قال تعالى : ﴿**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحقّ أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد**﴾[2] .

والعقل كأى عضو آخر لا بد له من التمرين حتى يظل سليماً ، يستطيع أن يؤدى وظيفته ، ومجال تمرين العقل إنما هو التفكر ، فمن أهمل التفكير علا عقله الصدأ ، وعجز عن أداء وظيفته .

وفى القرآن آيات كثيرة تنتهى بهذه الفاصلة : ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ ، وما أشبهها ، والمراد من ذلك أن النظر السليم يؤدى إلى التعقل السليم ، وهو إيحاء من القرآن الكريم للإنسان بأن يظل ـ دائماً ـ ناظراً بعقله إلى ما يحيط به من صغيرات الأمور وكبارها ،

---

(١) سورة الزمر ـ من الآية ٢ .

(٢) سورة فصلت ـ الآية ٥٣ .

٢ ــ المحافظة على الدين :

هدى الله الإنسان بالعقل الذى وهبه له ، وبالفطرة التى أودعها فيه إلى أن له خالقاً قادراً عليماً ، ثم أرسل له الرسل تؤكد له ما اعتقده فى الله ، وتبين له شرائعه ، ودعاه إلى التفكر فى ملكوت السموات والأرض ليزداد يقيناً بوحدانية الله وقدرته ، وحذّره من الإشراك بالله ، وضرب الأمثال بالأمم التى كفرت بما جاء به الرسل وتنكرت لما يهدى إليه العقل والتدبر ، وبين كيف كانت عواقب أمورها .

ودعاه بالترغيب والترهيب إلى أن يسلك الطريق المستقيم ، وذلك أن النفس البشرية جلبت على الخوف والرجاء ، فهى تخشى مصائب الدنيا ، وتخاف عذاب الآخرة ، وهى ترجو أن تعيش ــ دائماً ــ فى رغد من العيش ، وأن تلقى يوم القيامة من رضوان الله ما تنعم به .

وآيات الترغيب والترهيب فى القرآن الكريم كثيرة ، وكثيراً ما يقترنان فى سياق واحد : **﴿نبِّىء عبادى أنّى أنا الغفور الرحيم . وأنَّ عذابى هو العذاب الأليم﴾**[1] . **﴿إن هذا القرآن يهدى للّتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾**[2] .

بل يجىء الترغيب والترهيب فى آية واحدة : **﴿غافر الذَّنْبِ وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلّا هو إليه المصير﴾**[3] .

---

(١) سورة الحجر ــ الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) سورة الاسراء ــ الآيتان ٩ ، ١٠ .
(٣) سورة غافر ــ الآية ٣ .

يقول الله تعالى مخاطباً داود عليه السلام : **﴿ياداود إنَّا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾** [1] .

فاتباع الهوى مرة يغرى باتباعه مرات ، وحينئذ يغفل الإنسان عقله ، ويسير تبعاً لما يملى عليه هواه فيضل عن الحق ، ويتنكب الطريق القويم ، وينسى يوم الحساب ، وبهذا يستحق العذاب الشديد .

أما حين يتأبى الإنسان على هواه ، ويقاوم رغباته غير المشروعة ، ويرفض الإنسياق وراء الشهوات فإن جانب التعقل فيه يقوى ، فيبصر طريقه ، ويسير على هدى ، وينجو من عثرات الغفلات .

٤ ـ المحافظة على المال :

أودع الله فى نفس الإنسان غريزة التملك والاقتناء ، وكانت هذه ضرورية لبقاء نوعه ، فإن حياته مرهونة بما يملك من طعام وشراب ، وحياة النوع مرهونة بكل ما هو ضرورى لبقاء حياة الجماعة من حيوان ونبات وتجارة وصناعة .

وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى : **﴿زُيِّن للناس حُبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾** [2] .

---

(١) سورة (ص) ـ الآية ٢٦ .

(٢) سورة آل عمران ـ الآية ١٤ .

آخر أو يضره ، وقد أُمر الرسول أن يبلغ الناس أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، وأنه لا يعلم الغيب ، ﴿**قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرًّاً إلّا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلّا نذير وبشير لقوم يؤمنون**﴾[1] .

فليت شعرى ماذا يقول فى هذه الآية أولئك الذين ــ ومنهم من ينتسب إلى أهل العلم ــ ينسبون إلى شيوخهم علم الغيب ، وكم كان عجبى وألمى بالغين حين قرأت لشيخ شهر بأنه بحر فى العلم ، قرأت له حديثاً عن شيخه يقول فيه : لقد سايرته مرة وقتاً طويلاً فما خطر ببالى خاطر طوال ممسانا إلّا أخبرنى به ، فأى خطر على العامة ، وعلى أشباه العامة من مثل هذا الذى ما أعرف أنه روى عن نبى مرسل . أن يخبر جليسه أو رفيقه فى الطريق بكل ما يحدث به نفسه .

ونعود إلى إخلاص الدين فإنه لب الإسلام ، وبه تكون حقيقة المسلم .

فمن أدق ما فسر به «القلب السليم في قوله تعالى ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾[2] إنه القلب الذى لم يكن فيه غير الله .

وقد روى أن بعض الصالحين سئل حين حضرته الوفاة : ما كان خير عملك ؟ فقال : وقفت على باب قلبى أربعين سنة فكلما حاول غير الله الدخول فيه منعته .

ومما قيل : اليقين لا يساكن قلباً فيه سكون لغير الله .

وقيل : من أعلام اليقين النظر إلى الله فى كل شىء ، والرجوع إليه فى كل أمر ، والاستعانة به فى كل حين .

---

(١) الأعراف ١٨٨ .　　(٢) سورة الشعراء ــ الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .

الحاجة حين يقترض من القادرين ، فكم خربت بيوت ، وأفلست متاجر بسبب الربا ، وكذلك حرّم الله القهار .

وحرّم القرآن الغش فى التجارة ، أو فى المكاييل والموازين محافظة على أموال من يشترى ، فقد وردت آيات كثيرة فى وجوب إيفاء الكيل والميزان ، والتحذير من بخسها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان**﴾[1] .

قال بعض المفسرين : ذكر الميزان فى هذه الآية ثلاث مرات بمعانٍ مختلفة فالأول هو الآلة : «ووضع الميزان» ، والثانى بمعنى المصدر : «ألا تطغوا فى الميزان» أى فى الوزن ، والثالث بمعنى المفعول : «ولا تخسروا الميزان» أى الموزون .

وتوعد الله ـ سبحانهٗ وتعالى ـ بأشد العقوبة أولئك الذين يأخذون أكثر من حقوقهم إذا اشتروا ، ويبخسون الناس حقوقهم إذا باعوا ، فقال : ﴿**ويلٌ للمطفِّفين.الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون.وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون**﴾[2] .

قيل : كان أهل المدينة (مدينة الرسول) يطففون فنزلت هذه الآيات ، فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ فقرأها ، خمس بخمس . قيل : يا رسول الله . وما خمس بخمس؟ قال : (**ما نقض قوم العهد إلّا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلّا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت ، ولا طفَّفوا الكيل إلّا مُنعوا النبات ، وأخذوا بالسنين (الجدْب) ،**

---

(١) سورة الرحمن ـ الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ .
(٢) المطففون ـ الآيات ١ ، ٣٢ .

وبذلك يظل عقله يقظاً ، ويزداد قوة وحصافة .

وقد حذر القرآن من كل ما يؤثر على العقل أثراً سيئاً ، فحرم الخمر ، ففوق ما فى الخمر من أضرار بدنية ونفسية فيها إذهاب للعقل ، أو على الأقل فيها وقف لحركته أزمنة قد تقتصر وقد تطول ، وفى النهاية سيكون لها التأثير الخطير على العقل .

كذلك حذّر القرآن من أن تتغلب إحدى قوى الإنسان الداخلية على العقل فتطغى عليه ، وتفقده ـ فى النهاية ـ السيطرة على تصرفاته .

ومعروف عند القدماء من علمائنا أن قوى النفسية الداخلية ثلاث : القوة الناطقة أو الملكية ، وهى القوة التى يكون بها الفكر والتمييز والنظر فى حقائق الأمور ، والقوة الشهوية ، وتُسمى بالبهيمية ، وهى التى تكون بها الشهوة ، وطلب الغذاء ، والشوق إلى الملاذ ، والقوة الغضبية ، وتسمى السبعية ، وهى التى يكون بها الغضب والنجدة ، والإقدام على الأهوال ، والشوق إلى التسلط والكبرياء[1] .

والقرآن الكريم يطلق على القوة الأولى العقل واللب والقلب ، وعلى القوتين الثانية والثالثة ـ إذا انحرفتا ـ الهوى ، وإنما تنحرفان إذا لم تخضعا للعقل ، فإذا خضعتا له اعتدلت قوى الإنسان ، واستقام سلوكه ، وسارت حياته فى طريق سَوِىّ ، وسعد فى دنياه وآخرته .

لذلك يحذر القرآن الإنسان فى كثير من الآيات من اتباع هواه ، أو أهواء الآخرين ، ويبين له ما يجر إليه الهوى من ضلال وفساد .

---

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه .

قلت : والأسلوب العربى لا يأبى هذا التفسير ، بل يكاد يكون الراجح ، فإنه لم يتهم أحد بنوع آخر من أنواع الفساد حتى ينفوه عن أنفسهم ، وإنما كانت التهمة التى وجهت إليهم السرقة ، وهم ما جاءوا للإفساد ، وإنما جاءوا ليمتاروا لأنفسهم ولأهليهم ، والمحتاج هو وأهله إلى الطعام لا يفكر إلّا فى الوسيلة التى بها يحصل عليه ، وليس من ذلك أن يحمل الشر فى نفسه للبلد الذى جاء ليمتار منه .

وبعض من يدعون الشفقة ، ويتمسحون بالحضارة الغربية يتنكرون لحكم الله ـ عزّ وجلّ ـ فى السارق ، ولو ابتلى أحدهم بسرقة شيء من ماله ، لا سيما إذا كان ثميناً ، أو عزيزاً عنده لاستقل على سارقه القتل ، وقد غفلوا أو تغافلوا عما يصيب الأفراد والجماعات من جرَّاء هؤلاء السرَّاق .

وحجة الثائرين على هذا الحد أنه لو طبق لكان فى كل دولة إسلامية جيش من مقطوعى الأيدى ، وقد فاتهم أنه لو نفذ حكم الله دون رأفة أو رحمة أو شفقة لفكر السارق ألف مرة قبل أن يجرؤ على السرقة ، وبذلك ينتشر الأمن ويتضاءل إلى حد كبير عدد من يرتكبون هذه الجريمة .

وأمامنا بعض الأمثلة .

ذلك الشعب الذى يُنَفّذ فيه حدود الله . لقد عشت فيه سنوات فما رأيت جيشاً من مقطوعى الأيدى ، ولا جيشاً من القتلة ، بل إن الأيدى التى رأيتها تقطع ، أو علمت أنها قطعت لم تتجاوز ـ فى هذه المملكة المترامية الأطراف ـ عدد أصابع اليد الواحدة فى العام ، وربما كانت أقل من ذلك ، وبذلك سادت فى المملكة العربية السعودية السكينة والأمن ، وانصرف الناس إلى

وقد يلفت النظر فى هذه الآية أنها عدَّدت أصناف ما يملك ، وكان يمكن أن تذكر كلمة واحدة جامعة كما ذكرت كلمة واحدة فيما سبق الأموال : «النساء» . و «البنين» ، والغريزة الجنسية وإن كانت ضرورية لبقاء النوع ، وكذلك غريزة الأبوة ، إلّا أنا لو أمعنا النظر لوجدنا أن هناك فرقاً بين هذه الغرائز الثلاث ، ذلك بالنظر إلى آحاد الناس ، فإن الإنسان قد يعيش بلا زوجة ، وقد يعيش بلا ولد ، ولكنه لا يستطيع أن يعيش بغير شىء يملكه ، وقد يقتصر فى حياته على امرأة واحدة يتزوجها ، وعلى ابن واحد ، أو بنت واحدة ، ولكنه قلما يستطيع أن يعيش على نوع واحد من أنواع هذه الأموال . ، بل إن بعضها يتخذ وسيلة لغيره ، فالذهب والفضة مع ما جبلت عليه النفس من حبهما وسيلتان إلى غيرهما من المطعم والمشرب والملبس والمسكن .

حقيقة أن الآية تقدم فيها ذكر النساء لأن الغريزة الجنسية أقوى الغرائز ، ولكن تعدد فيها ذكر أنواع المال .

وقد جاء فى القرآن الكريم اقتران المال بالنفس كثيراً عند البذل ، ولذلك قيل : المال عِدل النفس .

لما كانت هذه منزلة المال من النفس البشرية ، ومن الحياة الفردية والجماعية عرض لها القرآن الكريم من نواح كثيرة .

فقد حث على تحصيله من طرق طيبة ، وحث على المحافظة عليه ، وعلى التمتع به ، وعلى إنفاقه فى سبل الخير ، ونهى عن التبذير .

كما شرع القرآن شرائع الهدف منها حفظ مال الإنسان .

فقد نهى أن يأكل الناس بعضهم أموال بعض بالباطل ، وأحل البيع ، وحرّم الربا لما فى الربا من أضرار بالغة تلحق بصاحب

والميول والنزعات ، وهذا ما نستفيده من القرآن الكريم فى الآية التى ذكرتها آنفاً : ﴿**زين للناس حب الشهوات ... الآية**﴾ .

فهذه الأمور التى أودع الله حبها فى جبلة الإنسان : النساء والبنون والأموال عليها كلها ، وما يتصل بها قوام الحياة ، وبها وبغيرها من نزعات النفس الإنسانية يتحدد السلوك .

وفى هذه الآية كلمة واحدة تدلنا على أن هذه المشتهيات فى جبلة الإنسان وطبيعته ، وقد قلت فيما سبق أن القرآن الكريم قد يضع الكلمة ليفيد معنى من أدق المعانى ، وأعمقها ، هذه الكلمة هى (حبُّ) ، فالمعتاد فى أساليب البشر أن يقال : زينت للناس الشهوات ، لأن معنى زُينت : حُسِّنت ، والذى يُحَسَّن للإنسان هو المرأة والولد والمال ، ولكن القرآن جاء بكلمة (حب) ـ والله أعلم بمراده ـ ليدل على أن هذه الشهوات محبوبة ، وحبها ثابت فى الجبلة ، لا ينفك الناس عنه .

والغريزة الجنسية التى تشير إليها هذه الآية قوية غالبة فلا بدّ من إشباعها والله ـ سبحانه ـ يريد مجتمعات فاضلة ، فيتحتم أن يكون إشباع هذه الغريزة عن طريق تشريع سليم حكيم ، فأباح الزواج لبنى البشر ، وحثهم عليه ، وامتنّ عليهم بأنه هيأ لهم هذا السلوك الحسن .

يقول تعالى : ﴿**وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يُغنِهِم الله من فضله والله واسع عليم**﴾ [1] .

ويقول سبحانه : ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآياتٍ**

---

(١) سورة النور ـ ٣٢ ، والأيامى : جمع الأيم يطلق على الذكر والأنثى ، وهو من لا زوج له من الرجال والنساء .

ولا منعوا الزكاة إلّا حُبس عنهم المطر.[1] .

وقد حرّم القرآن السرقة ، وأوجب فيها قطع يد السارق ، قال تعالى : **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بِمَا كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾**[2] .

وهذه عقوبة مناسبة كل المناسبة لهذه الجريمة النكراء التى تهدد الناس فى أموالهم ، وتحرمهم ثمرات أعمالهم ، وتشيع القلق والخوف بينهم ، وقد سماها الله ـ سبحانه فساداً فى الأرض ، فى قوله تعالى : **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلّبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزيٌ فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيم﴾**[3] .

ولما اتُّهم ـ إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ بالسرقة ، وهم على أهبة العودة إلى بلادهم بعد أن أخذوا حاجتهم من الطعام من مصر ، قالوا ـ كما حكى عنهم القرآن فى الرد على هذه التهمة : **﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين﴾**[4] .

قال بعض المفسرين : إن المراد بالإفساد فى الأرض ما يكون بالسرقة .

---

(١) الحاكم من رواية عبدالله بن بريدة عن أبيه رفعه : ما نقض قوم العهد ـ الحديث ـ وفيه بشر بن المهاجر وفيه مقال ، ومن طريق عطاء بن أبى رباح عن عبدالله بن عمر مرفوعاً نحوه .

نقلاً عن كتاب تخريج أحاديث الكشاف للحافظ بن حجر)

(٢) سورة المائدة ـ الآية ٣٨ .

(٣) سورة المائدة ـ الآية ٣٣ .

(٤) سورة يوسف ـ الآية ٧٣ .

أن يتزوج ثانية وثالثة ورابعة يجمع بينهن ، ولم يشترط القرآن لذلك أى شرط سوى أن يأنس الإنسان فى نفسه القدرة على العدل بين الزوجات ، فإن خاف ألا يعدل فواحدة أو ما ملكت يمينه .

ويتجنى على الإسلام من يدَّعى أن التزوج بما زاد عن الواحدة لا يكون إلّا عند الضرورة ، ويضرب مثلاً بالضرورة عقم المرأة ، أو مرضها ، وذلك ـ أعنى اشتراط الضرورة خطأ وقع فيه حتى بعض العارفين بشريعة الإسلام ، وهو ما لم يرد به كتاب ولا سنة ، ولعلهم أرادوا بذلك أن يردوا الانتقادات التى وجهت إلى هذا الحكم الإسلامى ، ولكن الإسلام ليس فى حاجة إلى الدفاع عنه بزيادة شروط لم يشترطها لأن فى ذلك ما يخالف النص القرآنى ، وفيه إساءة إلى كثير من صحابة رسول الله وتابعيهم ، ومن علماء هذه الأمة وصلحائها ، فنى سبر هؤلاء أن التزوج بأكثر من واحدة كان مألوفاً عندهم دون أن تكون هناك ضرورة على النحو الذى يقع فيه بعض علمائنا ، وبعض الجاهليين بحقيقة هذه الشريعة من شرائع الإسلام .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : ﴿**فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم**﴾ ، وذلك بعد أن أباح أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع .

كانوا يتزوجون اليتيمة ذات المال ، ويأكلون مالها ، ويبخسونها حقها فنهاهم الإسلام عن ذلك ، ووجههم إلى التزوج من غيرهن ، وإلى أن يعددوا إن شاءوا ، ولكن بشرط ألا يخافوا الجور فى المعاملة ، وهو ـ فى الحقيقة ـ شرط شديد .

ولهذا التشريع آثار حميدة كثيرة إذا التزم كل من الزوجين حدود ما شرعه الله ، أما إذا بعد كل منهما ، أو أحدهما عن روح الدين

العمل المثمر المفيد .

ومن أعجب أن يدعى بعض أعداء الشريعة . ومنهم ـ مع الأسف ـ من ينسب إلى رجال الدين . أن يدعوا أن الشرق كله فى مجاعة ، وأن الواجب أولاً أن نهيىء للشعوب حياة الكفاية ثم نطالب بعد ذلك بقطع يد السارق . وفى تمويههم هذا مغالطتان واضحتان .

فأولاً : إذا نظرنا نظرة استقصاء وتتبع لوجدنا أكثر الذين يسرقون أو يرتشون أو يختلسون ليسوا فقراء ، ولا فى مجاعة ، بل هم فى سعة من العيش ، أو على الأقل فى كفاية منه .

وثانياً : فى أى عصر من العصور ، وفى أى قطر من الأقطار خلا المجتمع من فقراء ومحتاجين ومع ذلك لم يقل احد إن هذا الحد من حدود الله يعطل .

نعم إذا عمت المجاعة ، واشتدت الحاجة .. كما حدث فى عام الرمادة فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أوقفت إقامة الحد ، وكان لمن يمد يده إلى مال غيره بعض العذر ، على أن المسلم الحق لا يشين يده بهذه الجريمة النكراء إلّا إذا أشرف على الهلاك ، بل ربما فضل الموت على أن يسرق أو يختلس .

٥ ــ المحافظة على العرض :

أودع الله ـ سبحانه ـ فى الإنسان الغريزة الجنسية ، وهى ـ وإن كانت ذات أهمية بالغة فى حياة البشر ، وفى بقاء النوع الإنسانى ـ ليست كل شىء فى توجيه سلوك الإنسان كما يرى بعض الباحثين الذين يرجعون إليها كل تصرفات الإنسان منذ سنواته الأولى ؛ ذلك أن الإنسان يصدر فى تصرفاته عن مجموعة من الغرائز

وحرم على المرأة كشف شيء من جسدها إلّا وجهها ، وكفيها عند الضرورة ، وأمرها بإطالة الثياب ، قال تعالى : ﴿**يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن**﴾ [1]

وحرم الإسلام الخلوة بين المرأة والأجنبى عنها ، ونبَّه إلى أن الشيطان يكون ثالثهما فى هذه الحال ، وقد تكون الرغبة الجامحة ، ورقة الدين ـ حينئذ ـ سلاحين ماضين فى يد الشيطان ، وربما لا يحتاجان إلى شيطان يزيِّن لهما غير نفسيهما الأمارتين بالسوء ، الغافلتين عن سوء العاقبة ، ورهبة العقاب .

وشرع الإسلام (الاستئذان) حتى عند دخول الولد البالغ على أمه ، بل الذى لم يبلغ الحلم ، وكذلك عند دخول الأخ على أخته ، فقال تعالى : ﴿**يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جُناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم**﴾ [2] .

وكذلك نهى الإسلام أن يدخل المسلم بيتاً دون أن يستأذن أهله ، ويستأنس بهم ، ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم**﴾

---

(١) سورة الأحزاب ـ الآية ٥٩ .

(٢) سورة النور ـ الآية ٥٨ .

(٣) سورة النور الآية ٢٨ .

لقوم يتفكرون﴾ [1]

فعلى من يستطيع الزواج أن يبادر إليه ، ليعف نفسه ، ويقضى حق غريزته ، ويسعد بالذرية التى جعل الله حبها طبيعة من طبائعه .

فإذا لم يستطع الرجل الزواج لقلة ذات يده ، أو لعزوف نفسه عنه فعليه أن يستعفّ ، وليحذر أن يرتكس فى فاحشة الزنا ، قال تعالى : **﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾** [2] .

يستطيع أن يشغل نفسه بتحصيل العلم ، وبالقراءة المفيدة ، وبالرياضة المباحة .

والحديث الشريف يرشد إلى أن الصوم يعين على العفة ، يقول ﷺ : **(يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)** [3] .

وقد وضع الله ـ عزّ وجلّ ـ قيوداً وحدوداً للغريزة الجنسية تكبح جماحها ، وتقصر خطو من يهم أن يتنكب الجادة فى تحصيلها ، ويحيد عن طريق الفضيلة والحق والخير فى إشباعها .

والله ـ سبحانه ـ يعلم أن رغبة الرجل فى المرأة غالبة عليه ، وأنه ربما تطلع إلى أخرى غير زوجته ، فيتخذ خليلة ، يعاشرها معاشرة غير شرعية ، كما هو واقع من الذين لا يخافون الله ، ولا يخشون عقابه ، ولا يحسبون للفضيلة والشرف والعفة حساباً ، فأباح للرجل

---

(١) سورة الروم ـ الآية ٢١ .

(٢) سورة النور ـ الآية ٣٣ .

(٣) الباءة : النكاح . الوِجاء ـ بكسر الواو ـ الواقى ، والحديث أخرجه البخارى فى الصوم والنكاح ، ومسلم فى النكاح ، وأخرجه غيرهما .

فإن ضرره محقق لا محالة ككل شريعة أخرى .

إن المصلح الاجتماعي ينظر فيرى مجتمعاً شاع فيه التعدد فقل فيه انتهاك الأعراض ، ويرى مجتمعاً آخر اقتصر فيه كل رجل على زوجة واحدة فشاع فيه اتخاذ الخليلات ، وكثر اللقطاء المشردون ، وانتشر الإجهاض بين الصغيرات والكبيرات فأى المجتمعين أفضل ؟ مع ما يلاحظه فى المجتمع الثانى من كثرة العوانس والأرامل .

وقد شرع الإسلام عقوبة لمن يجرح عرض امرأة بأن يتهمها بالزنا دون أن يكون معه على ذلك دليل ، فأوجب أن يجلد القاذف ثمانين جلدة ، ويسمى هذا (حد القذف) ، وقد تضمنته الآية الكريمة : **﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون. إلّا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾**[1] .

وقذف الرجل المحصن كقذف المحصنة ، فى كليهما الحد ، والمتأمل فى الآية الكريمة يرى أن فيها وعيداً شديداً للقاذف ، فهو فاسق ، وكفى بهذا الوصف معرة وخسة ، وهو مردود الشهادة ، وهذا حطٌّ من قدره ، وانتقاص من كرامته ، واستهانة به ، وهو مستحق للجلد ثمانين جلدة ، وكفى بهذا مهانة ، ولذلك عد القذف من كبائر الذنوب .

ومن ذلك ـ أيضاً ـ نتبين حرص القرآن على الأعراض وصيانتها .

وقد حرم الإسلام الزنا ، وسمّاه فاحشة ، وتوعد عليه بأقسى العقوبات ، كما حرم كل ما يؤدى إليه ، فأمر الرجال بغض أبصارهم ، وأمر النساء بغض أبصارهن ، وبألا يبدين زينتهن ،

---

(١) سورة النور ـ الآيتان ٤ ، ٥ .

وليس أضر على النفس الإنسانية من شعورها بأن الآخرين يملكون لها نفعاً أو ضراً ، فإنها ـ تقع طائعة أو كارهة فى مساوىء من الأخلاق تفقدها إنسانيتها .

وليس أضل فى هذه الحياة من الذين ينكرون وجود الله ، أو يشككون فى وجوده ، فإنهم يحرمون البشرية من أسمى ما ينبغى أن تحرص عليه .

وقد جربت البشرية فلسفة الماديين فما حظيت بطائل ، وجربت إطلاق العنان للشهوات ، وإشباع الغرائز فما ازدادت إلّا قلقاً واضطراباً ، وكلما بعدت الإنسانية عن الله زاد شقاؤها ، وتعقدت مشاكلها ، واستعصت على الحلول ، وبذلك تفقد المنبع الأول للسعادة .

على أن هؤلاء الذين يلحدون فى ذات الله ، أو يسخرون من الاعتقاد فى وحدانيته يتنكرون للفطرة الإنسانية ، ويتجاهلون أن التدين ـ حتى فى الأمم البدائية ـ عقيدة راسخة فى أعماق النفس ، ومن هنا قال الفيلسوف (أجوست سباتيه) الفرنسى ، فى كتابه : (فلسفة الدين) يجيب عن هذا السؤال : لماذا أنا متدين ؟ يقول :

(إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلّا وأرانى مسُوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين لأنى لا أستطيع أن أكون خلاف ذلك ؛ لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى) .

ومما يرتبط بالاعتقاد فى وجود الله اليقين بأن وراء هذه الحياة الدنيا حياةً أخرى ، يجازى فيها المحسن على إحسانه ، ويعاقب فيها المسىء على إساءته ، فقد أكد القرآن الكريم أن مصير الناس جميعا إلى الله ، وأنه لا بد من الجزاء على العمل ، يقول الله تعالى : ﴿**وأن**

وهذا أسمى ما تصل إليه التعاليم العالية فى حفظ الأعراض ، ولو أن المسلمين التزموا بتعاليم الإسلام فى هذا الشأن وفى غيره لكانت لهم السيادة والسعادة ، ولكن الكثير منهم ـ منذ القديم ـ انحرفوا عن الطريق القويم ، حتى قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما :

ثلاث آيات جحدهن الناس : الإذن كله ، وقوله تعالى : ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ ، فقال الناس : أعظمكم بيتاً ، وقوله : ﴿**وإذا حضر القسمة**﴾

وقال الزمخشرى عن استئذان الأطفال بعد أن يبلغوا الحلم : وهذا مما الناس عنه فى غفلة ، وهو ـ عندهم ـ كالشريعة المنسوخة .

وعن ابن عباس : آية لا يؤمن بها أكثر الناس . آية الإذن ، وإنى لآمر جاريتى (يريد زوجته) أن تستأذن علىّ .

وعن الشعبى فى آية الإذن أنها ليست منسوخة ، فقيل له : إن الناس لا يعملون بها ، فقال : الله المستعان[1] .

لقد شرع القرآن للإنسان ما يحفظ به نفسه ودينه وعقله وماله وعرضه ، ولكن الإنسان لشقوته ، وسوء حظه أعرض ونأى بجانبه ، فاعتدى المسلم على نفس المسلم ، واعتدى على دينه بمخالفة الأوامر ، واتباع المنهيات ، ولم يحافظ على عقله فشرب ما يشربه ، وهان عليه فقصر فى الإبقاء عليه سليماً معافى ، واعتدى المسلم على مال المسلم ، وأكله بالباطل ، واعتدى على عرضه فلم تكن له عنده حرمة ...

وهكذا يشرع القرآن ، ويمتثل الأقلون ، ويتمرد على أحكامه الأكثرون والله المستعان .

---

(١) من تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٨٣ .

لا يبخسون﴾ [1] . **﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلا نُمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾** [2] .

﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب﴾ [3] .

لكن ما يناله الإنسان فى الدنيا جزاء عمله فيها مهما كثر ، ومهما طالت مدته فهو إلى زوال ، ولذلك كان قليلا ضئيلا إذا قيس بما يلقاه من جزاء على عمله فى الدار الآخرة .

والحياة ملأى بالمغريات ، والنفس بطبيعتها ميالة إلى أن توفر أكبر قدر ممكن من السعادة ، وكثير من الناس يظنون أن السعادة الحقة فى إشباع الرغبات ، وإرواء الشهوات ، ولكن فاتهم أن تحصيل الشهوة يزيد الرغبة فى شهوة أخرى ، فيظل الإنسان يتطلب الشهوات حتى يفقد لذتها ، وحتى يكون قصارى ما يطلبه أن يجد شهوة جديدة ، أو أن يعاد إلى شهوته التى عكف عليها طعمها الذى كان لها حين اقترفها لأول مرة ... وهيهات .

أما الذين يطلبون نعيم الآخرة فهم يعلمون أنه نعيم دائم متجدد ، ولذلك فهم يحرصون على التحلّى بالفضائل التى بيّنها لهم الدين ، وعلى التخلّى عن الرذائل التى يحذرهم منها : **﴿يوم تجد كلُّ نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيداً﴾** [4] .

---

(١) هود ـ الآية ١٥ .
(٢) الاسراء الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .
(٣) الشورى ـ الآية ٢٠ .
(٤) سورة آل عمران ـ من الآية ٣٠ .

الباب الرابع

الفصل الأول

السُّلوك الأخلاق للإنسان
كما يعرضـــه القــرآن

وضع القرآن الكريم مبادىء عامة ، ووصف الإنسان بأوصاف خاصة ، وفى هذين يمكن أن نتبين الأسس التى أقام القرآن أخلاقه عليها تلك التى حثت الناس على التحلى بالفاضل منها ، والتخلى عن الشىء الممقوت حتى يعيشوا سعداء على هذه الأرض ، وحتى تقل بينهم الأحقاد والخصومات ، وتسود أفرادهم ومجتمعاتهم المحبة والألفة .

أما المبادىء العامة :

١ ـــ فأولها الايمان بالله ، وباليوم الآخر :

ذلك أن الإنسان إذا اعتقد أن الله واحد ، لا شريك له ، وأن كل شىء بإرادته وتقديره ، وأن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوه لم ينفعوه إلّا بشى قد كتبه الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلّا بشىء قد كتبه الله عليه .

إذا اعتقد الإنسان ذلك تحررت إرادته ، وارتفعت نفسه فوق الضرورات ، وواجه الحياة بيقين الواثق أن الخضوع لصغائر الأمور لن يمنحه خيراً لم يكتب له ، وأن الاستعصام بمكارم الأخلاق لن يحرمه منفعة قُدر له أن ينالها .

حينئذ ـ لصاحب المال الكثير ، والخير الوفير ، لأنه من عمل غيره لا من عمله ، حتى لو كان عن جهد منه وعمل ، وسعى وكد ، فما ينبغى أن يطغيه ، لأنه ما حصّله إلّا بفضل الله عليه ، وتيسير سبل الحصول له ، على أن الإنسان لا يأمن فجاءات القدر ، ولا أحداث الأيام ، فقد يثرى المعدم ، ويُملق صاحب الثراء العريض ، وكما قال الشاعر :

وقد تعدل الدنيا فيمسى غنيُّها
فقيرا ، ويغنى بعد بؤس فقيرها

وقد نعى القرآن الكريم على من يطغيهم المال ، ويبطرهم الثراء ، قال تعالى : ﴿**كلا إنَّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾[1] .

كذلك لا فضل للإنسان فيما منحه الله من موهبة ، فمانحها هو الله ، وإذا نمَّاها بالاكتساب فإن ذلك يدعوه إلى شكر الله الذى وفقه إلى أن يصل بموهبته إلى درجة رفيعة ، وينبغى أن يحمله هذا على التواضع لا على احتقار الآخرين ، والتعالى عليهم .

ومن شأن العلم النافع أن يحمل صاحبه على الرفق بمن لم يتيسر له تحصيل العلم ، وأن يعمل على تخليصه من وهدة الجهل ، وإشعاره بإنسانيته ، وليس أدعى للتواضع وغمط النفس من العلم ، إذا كان معه العقل .

أما الذى يتخذ العلم وسيلة للتعالى والتكبر فهو الجاهل حقا ، ولقد صدق أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى الفيلسوف العربى فى قوله : (العاقل من يظن أن فوق علمه علماً فهو دائماً يتواضع ،

---

(١) العلق ـ الآيتان ٦ ، ٧ .

إلى ربك المنتهى﴾[1] و : **﴿إن إلى ربك الرُّجعى﴾**[2] . **﴿يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾**[3] . إلى آيات كثيرة فى هذا المعنى .

وفى الآية الأخيرة وعد ووعيد عظيمان ، فالخطاب لكل إنسان على حدة ، فاللفظ وإن كان المراد منه كل الناس إلّا أنه ـ فى الظاهر ـ مفرد ، فكأن الله ـ سبحانه ـ يوجه هذا الخطاب إلى كل نفس بمفردها ، وفى التعبيرْ بإلى هنا إشارة إلى أن كل خطوة يخطوها الإنسان إنما هى سعى إلى نهايته ، فلقاء الله هو الغاية من الكدح ، تذكر ذلك الإنسان أو تجاهله وتناساه ، أو استولت على قلبه الغفلة فنسيه .

وهل هناك أدعى إلى أن يعمل المرء الطيبات من أن يذكر دائماً أن مصيره إلى الله ، وأن الموت نهايته ، ولكنه بداية لحياة أخرى ، يواجه المصير فى جماعة ، وكأنه وحده .

إن صوتاً مرتفعاً واضحاً يتردد فى داخل الإنسان يلفته دائماً إلى هذه الغاية ، وإن كان بعض الناس يتجاهل هذا الصوت ، كأنْ لم يسمعه ، كأنَّ فى أذنيه وقراً .

أما الجزاء على العمل فهو حق ، وقد يكون شىء منه فى الدنيا . قد يكون للمؤمن الطمأنينة والأمن والرضا ، وقد يكون له أو لغيره المال والولد والجاه ، وما قدر له من نعيم الحياة ، يقول تعالى : **﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها**

---

(١) النجم ـ الآية ٤٢ .
(٢) العلق ـ الآية ٨ .
(٣) الانشقاق ـ الآية ٦ .

منهن﴾[1] .

وفى الآية ما يصرح بأن الإنسان قد يخطىء فيظن أن له مزية على أخيه ، وقد تكون ظاهرة يغتر بها ، وقد يغترّ بها الآخرون ، ولكن الحقيقة تكون عند الله تعالى غير ذلك ، فيكون صاحبه الذى سخر منه هو خيرا منه عند الله ، وأرفع منزلة .

٣ ـ المسئولية الفردية :

كل إنسان مستقل بإرادته ، متصرف بعقله ، مسئول عن عمله ، مجزى بسعيه له ما كسب ، وعليه ما اكتسب ، لا ينفعه ـ فى الأصل ـ عمل غيره ، ولا تضره جناية سواه ، ولا يملك له أحد نفعاً ولا ضرا ، فنى يوم القيامة يكون الناس كما قال الله تعالى : **﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾**[2] ، وكما قال ـ سبحانه ـ : **﴿يوم يَفِرُّ المرء من أخيه . وأمّه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرى منهم يومئذ شأن يغنيه﴾**[3] .

وهذه سنة الله تعالى : عدالة مطلقة ، نبه إليها الأمم السابقة ، وأكدها للأمة الإسلامية ، فجاءت فى أكثر من آية من آيات القرآن ، يقول تعالى مخاطباً نبيه : **﴿أفرأيت الذى تولى . وأعطى قليلا وأكدى . أعنده علم الغيب فهو يرى . أم لم ينبأ بما فى صحف موسى . وإبراهيم الذى وفّى . ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾**[4] .

---

(١) الحجرات ـ الآية ١١ .

(٢) المدثر ـ الآية ٣٨ .

(٣) سورة عبس ـ الآيات ٣٤ ـ ٣٧ .

(٤) النجم ـ الآيات ٣٣ ـ ٤١ ـ وأكدى : من قولهم : أكدى الحافر إذا بلغ الكُدية ؛ أى الصلابة كالصخرة ، فلم يتمكن من الحفر ، ولذلك يقال : أكدى الشاعر ، وأجبل كأنه بلغ الجبل فى حفره .

٢ ـ الناس أمام الله سواء :

وينبغى أن يكونوا فيما بينهم كذلك ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود ولا لذكر على أنثى ، ولا لغنى على فقير ، ولا لعالم على جاهل إلّا بالعمل الصالح ، والسلوك الطيب ، ومدى النفع الذى يحققه أحدهم لدينه ولأمته ولوطنه ، بل للإنسانية كلها ؛ ذلك أنهم جميعاً من أب واحد وأم واحدة ، ويعبدون إلهاً واحداً وقد جعل الله ـ سبحانه ـ القانون بينهم التّعارف لا التناكر ، والتواصل لا التقاطع ، والمحبة والإخاء لا العداوة والبغضاء : **﴿يأيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾**[١] .

فالله ـ سبحانه ـ هو الذى خلقهم جميعاً ، وهو الذى جعلهم شعوباً وقبائل ، وهو الذى يناديهم بهذه الكلمة العامة : **﴿يأيها الناس﴾** ، فلا فضل لأحد منهم فى أصل وجوده ولا فى موضعه من قوم بأعيانهم ، ولا ميزة له عند الله إلّا بالتقوى ، ومنها العمل لخير الإنسانية أما الجنس واللون ، وأما الأحساب والأنساب ، وأما المواهب والاستعدادات ، وأما الغنى والفقر فلا ينبغى أن تكون موضع تفاضل إلّا بمقدار ما يكون من تقوى وبر وخير . فلا يتعالى ذو النسب الشريف على ذى النسب الوضيع ، لأنه لا فضل للفرد فى نسبه ولا فى لونه ، وما نفع الأصول إذا تخلفت الفروع ؟ وما ذنب إنسان فى لون بشرته .

ولا يتكبر غنى على فقير ، فقد يكون المال موروثاً ، فلا فضل ـ

---

(١) سورة الحجرات ـ الآية ١٣ .

حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم ، ومن سنّ فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شى)[1] .

وأما قوله تعالى : **﴿وأن ليس للانسان إلّا ما سعى﴾** فقد جرى بين العلماء منذ القديم جدل طويل حولها ، وأول ذلك مناظرتها بقوله تعالى : **﴿والّذين آمنوا واتبعتهم ذرِّيتهم بإيمانهم ألحقنا بهم ذرِّيتهم وما ألتناهُم من عملهم من شىء كلُّ امرىء بما كسب رهين﴾**[2] ، فقد فهم ابن عباس منها أن الذرية تنتفع بعمل الآباء ولذلك روى عنه أن آية : **﴿وأن ليس للانسان إلّا ما سعى﴾** منسوخة بهذه الآية : **﴿ألحقنا بهم ذريتهم﴾** .

وقيل : كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى ، فأما هذه الأمة فلها ما سعوا ، وما سُعى لهم ، وذكر القائلون بهذا أحاديث تؤيد ما ذهبوا إليه ، ومنها ما روته عائشة ـ رضى الله عنها ، قالت : إن رجلا قال لرسول الله ـ ﷺ ـ : إن أمى افتلتت نفسها ، وأظنها لو تكلمت تصدقت ، **فهل لها أجر إن أنا تصدقت عنها ؟ قال : نعم)**[3] .

وقد رووا اجماع العلماء على أن الصدقة على الميت تنفعه ، ويصله ثوابها ، وكذلك أجمعوا على وصول الدعاء ، وقضاء الدين للنصوص الواردة فى ذلك ، ويصح الحج عن الميت حجة الإسلام ، وكذا لو أوصى بحج تطوع على الأصح عند الشافعى .

واختلف العلما فى الصوم إذا مات وعليه صوم فالراجح جوازه عنه للأحاديث الصحيحة الواردة فى ذلك .

---

(١) رواه مسلم من حديث جرير بن عبدالله البجلى ، والترمذى بلفظ : (من سن سنة خير ، ومن سن سنة شر) .

(٢) سورة الطور ـ الآية ٢١ .

(٣) أخرجاه فى الصحيحين .

والجاهل من يظن أنه تناهى فى علمه فيتكبر ، فتمقته القلوب) .

ولا شك أن الإنسانية خسرت ، ولا تزال تخسر كل يوم من جراء ما ترتكبه حماقات بعض الحكام ، وجهالات بعض الشعوب من اتخاذ التفرقة العنصرية دينا عنه تصدر فى كل تصرفاتها ، ومنه تنبع كل حماقاتها ، فما جنت الشعوب من ذلك إلّا الأحقاد والضغائن ، والعداوات والتمزق ، والمواجهة المسلحة أحيانا ، التى تذهب بأرواح الناس وأمنهم ، وتعكر عليهم صفو حياتهم .

وماذا يضير العالم المتحضر ، بل العالم المتخلف أن يعطى كلَّ إنسان حقه فى الحياة ، وأن يوفر له حظه من التقدير والاحترام ، وينال ما يستحق من ثروة وطنه وخيراته ؟

وأى كارثة تحل بهذه الشعوب لو سادت بينها المودة والاخاء ، وجلس الأبيض إلى جوار أخيه الأسود ، يشعره بأن الإنسانية فى ذاتها شرف ، وأن الرابطة بينهما لها قداستها ، فالجميع من آدم ، وآدم من تراب ؟

ومن عجب أن هذا الدا الوبيل (التفرقة العنصرية) يتفشى فى بعض الدول المتسلطة على مرأى ومسمع من دول كثيرة تدعى التقدم والحضارة فلا تكتفى بإغماض عينيها عنه ، بل تساعد هذه الدولة ، اقتصاديا وسياسيا ، ثم يتشدقون بأنهم أنصار حقوق الإنسان .

إن الإسلام منذ غمر نوره هذا الوجود حارب العنصرية ، ونهى القرآن الكريم أن يسخر الإنسان من أخيه الإنسان لأى سبب من الأسباب : ﴿**يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً**

ويرى أن الحق ما قيل من أن الإنسان فى الآية عام ، ويورد عليه ما جاء فى الأخبار من أن ما يأتى به القريب من الصدقة والصوم والدعاء يصل إلى الميت ، فللإنسان شىء لم يسع فيه ، كما يورد ما ثبت ثبوتاً قاطعاً من مضاعفة الحسنات فى مثل قوله تعالى : **﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾** [1] ، وهو فوق ما سعى .

وأجاب عن الأول بأن الإنسان إن لم يسع فى أن يكون له صدقة القريب بالإيمان لا يكون له صدقته ، فليس له إلّا ما سعى .

وأجاب عن الثانى بأن الله تعالى لما وعد المحسن بالإحسان إليه بالمضاعفة العشرة ومازاد فإذا أتى المسلم بحسنة راجياً أن يؤتيه الله ما يتفضل به فقد سعى فى الأمثال .

ويحذو حذوالرازي تلميذ من أخص تلاميذ ابن تيمية فى العصر الحديث هو السيد رشيد رضا ، فيذكر قول الله تعالى : **﴿ولا تكسب كل نفس إلّا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** [2] . ويقول إن هذه (قاعدة من أصول دين الله تعالى الذى بعث به جميع رسله ، كما قال فى سورة النجم) ويذكر الآيات التى نحن بصدد الحديث عنها .

ويؤكد أن (من قال بانتفاع الميت من كل عمل يعمل له وإن لم يكن العامل ولده فقد خالف القرآن ، ولا حجة فى الحديث الصحيح ، ولا فى القياس الصحيح) .

ويتمسك بما جاء صريحا فى بعض الأحاديث من أن انتفاع الميت ثابت إذا كان من ولده ، كما فى قوله ﷺ ـ : (**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع**

---

(١) سورة الأنعام ـ من الآية ١٦٠ .

(٢) سورة الأنعام من الآية ١٦٤

يبدو من سياق الآيات أنها نزلت فى شخص معين بذل من أمواله فى سبيل الدعوة ، ثم خدعه بعض المضللين ، ووعده بأنه سيتحمل عنه العذاب يوم القيامة ، فامتنع عن الإعطاء ، وهو معنى (أكدى) ، وقد خسر هذا الرجل لأنه لا يعلم الغيب ، فيكون على يقين من أن صاحبه سيتحمل عنه يوماً من العذاب ، وجهل ما جرت عليه سنة الله فى الأولين والآخرين : لا تحمل نفس جريرة نفس أخرى ، ولا ينفع إنساناً سعى إنسان آخر ، وكل إنسان مجزى بعمله ، جزاء وافياً ، وفوق الوافى .

وقد ورد فى القرآن ما لعله يفهم منه أنه استثناء من هذه القضية الكلية ، وذلك فى قوله تعالى : **﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنَّهم لكاذبون . وليحملُنَّ أثقالهم وأثقالا مع اثقالهم وليسئلنّ يوم القيامة عمَّا كانوا يفترون﴾**[1] .

ففى الآية الأولى يكذب الله الذين كفروا حين وعدوا المؤمنين بأنهم يحملون عنهم ذنوبهم إن اتبعوهم ، وكفروا بما أنزل على محمد .

وفى الآية الثانية يخبر سبحانه أن الكفار سيحملون ذنوبهم ، وذنوباً أخرى فى الظاهر أنها ذنوب آخرين ، ولكنها فى الحقيقة ذنوبهم أيضاً ، فهم يحملون وزر ما فعلوا ، ووزر إضلال غيرهم ، فإن من أغوى إنسانا كان عليه ذنبان : ذنب الغواية ، وذنب الإغواء ، فهو ذنبه لا خفاء فى ذلك .

وهذا ما جا فى الحديث الشريف : **(من سنّ فى الإسلام سنة**

---

(١) سورة العنكبوت ـ الآيتان ١٢ ، ١٣ .

هذا . وقد عرض الأستاذ العقاد لهذه القضية فى فصل عنوانه (المخلوق المسئول) فلم يزد عن أن (الإنسان مسئول عن عمله ـ فردا وجماعة ـ لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، ولا أمة بوزر أمة)[1] .

وأورد قوله تعالى : **﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾**[2] وقوله تعالى : **﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾**[3] .

فاقتصر ـ كما نرى ـ على وجه واحد من وجهى القضية ، ولم يطل فيها .

وأما الأوصاف الخاصة بالإنسان التى نبه القرآن إليها ـ وهو ـ دائماً ـ يذكّر المصلحينَ والمربين بها ليسلكوا الطريق القويم فى تربية الناشئة ، واصلاح أحوال الأمم ، فمنها :

١ ـ الفطرة خيِّرة :

وقد عرفنا الجدل الطويل الذى احتدم بين الفلاسفة والحكماء فى القديم والحديث حول الفطرة الإنسانية .

فقال قوم : إن فطرة الإنسان خيرة ، ونفس الطفل معدّة للكمال ، أودع الله فيها الاستعداد للفضائل ، وأوجد فيها من الغرائز والميول والنزعات ما يعينها على حياة فاضلة .

وقال آخرون : إن الفطرة شريرة ، وأن الغرائز والميول التى

---

(١) الإنسان فى القرآن ص ١٢ .
(٢) سورة الطور ـ من الآية ٢١ .
(٣) سورة البقرة ـ الآية ١٤١ .

والمشهور من مذهب الشافعى أن قراة القرآن لا يصل ثوابها ، وقال جماعة من أصحابه يصله ثوابها ، وبه قال أحمد بن حنبل ، وأما الصلوات ، وسائر التطوعات فلا يصله عند الشافعى والجمهور ، وقال أحمد : يصله ثواب الجميع [1] .

وقال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : (وكذلك ظن قوم أن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحى ينافى قوله تعالى : ﴿**وأن ليس للانسان إلّا ما سعى**﴾ فليس الأمر كذلك ، فإن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحى بالنسبة للآية كانتفاعه بالعبادات المالية ، ومن ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الآخر فقوله ظاهر الفساد ، بل ذلك بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة ، وقد بينا فى غير هذا الموضع نحواً من ثلاثين دليلاً شرعياً يبين انتفاع الإنسان بسعى غيره .

إذْ الآية إنما نفت استحقاق السعى وملكه ، وليس كل ما لا يستحقه الإنسان ولا يملكه لا يجوز أن يحسن إليه مالكه ومستحقه بما ينتفع به منه ، فهذا نوع ، وهذا نوع ، وكذلك ليس كل ما لا يملكه الإنسان لا يحصل له من جهته منفعة فإن هذا كذب فى الأمور الدينية والدنيوية) [2] .

وكأن ابن تيمية يرد على الفخر الرازى وعلى غيره ممن يرى رأيه ، فأولاً يضعف الفخر القول بأن المراد بالإنسان فى الآية (الكافر) ويحكم على القول بأن الآية منسوخة ، وأن ما تضمنته كان شرع من تقدم ، وأن الله جعل للإنسان من أمة محمد ما سعى وما لم يسع فيه ، يحكم على هذا القول بأنه (باطل) وأنه من التكلف .

---

(١) تفسير الخازن جـ ٤ ص ٢٢٠ .

(٢) فتاوى ابن تيمية جـ ١٨ . ص ١٤٣ ، وينظر جـ ٢٤ أيضاً .

يجرد نفساً منها ، وذلك ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ ، ولكن يمكن أن تتلبد السحب والغيوم فى سمائها الصافية فتحجبها أحياناً ، فتحيد عن طريق الفطرة بما يعرض لها من العالم الخارجى ، فتتغلب عليها الأهواء والنزعات والميول التى تأثرت بالعوامل الخارجية ، وتزين لها الشهوات الجامحة ، وبذلك تخرج الغرائز عن اعتدالها ، وتتجاوز القوى النفسية حدودها ، فقوة الغضب ـ مثلاً ـ تخرج عن هدفها الأصيل ، وهو المحافظة على وجود الإنسان ، والدفاع عن حقوقه وحرياته إلى أن تصبح وسيلة للاعتداء على الآمنين ، والتسلط على الضعفاء ، وإلى أن تزين لأصحابها أن (القوة فوق الحق) وأنه : (لا بقاء للضعيف) ، كما تصيح بذلك بعض الفلسفات الغربية ، وتترسمه بعض الدول عملياً .

ولقد عاشت بعض الدول الأوربية زمناً تدين بفلسفة (نيتشة) التى يمثلها قوله : (على أن البقاء يكون للأقوى ، وعلى أنه ليس من حق الضعيف أن يعيش) ، وقوله : (إن صفة التسامح والرحمة والعون اذا عُدت من الفضائل ، فإنها من فضائل الداعرات الساقطات) .

وفى أيامنا هذه تنهج بعض الدول الكبرى نهج هذه الفلسفة ، وإن كانت تتظاهر بنصرة العدل والحق ، والدفاع عن حقوق الإنسان ، والأمثلة كثيرة ، وبارزة للعيان .

ومن هنا لا نكاد نرى حياة مستقرة فى شعب من الشعوب ، فعلاقات الأفراد بعضهم ببعض إذا قامت على مبدأ القوة فوق الحق عاشوا فى صراع مستمر ، لأن الظفر يكون للأقوى ، ولكنه فى الحقيقة ظفر ظاهرى لا يحقق له السعادة التى ينشدها ، لأن العداء

به ، أو ولد صالح يدعو له)[1] .

ويقول : (وقد ألحق ذرية المؤمنين بهم بنص القرآن ، وصح فى الحديث أن ولد الرجل من كسبه) .

فإذا ورد فى الحديث (فليصم عنه وليه) جعل الراجح المختار أن المراد بالولى (الولد) قال : (لينطبق على الآيات والأحاديث الأخرى) .

فإذا وردت فى بعض الروايات (الأخت) يقول إن (ذكر الأخت غلط ظاهر) قال : (وأما قياس عمل غير الولد على عمله فباطل) .

ويقول إن مذهب أشهر أئمة الفقه أنه لا يصام عن الميت مطلقاً ، قال ومنهم أبوحنيفة ومالك والشافعى والإمام زيد بن على والهادوية والقاسم من العترة .

ثم يقول : (وقد غفل عن ذلك من عوّدونا استدراك مثله على المتقدمين كشيخى الإسلام والشوكانى من فقهاء الأحاديث المستقلين) .

قلتُ : ومع ماقاله الرازى ، وما أطال به السيد رشيد أرى أن الحق مع ابن تيمية ومن سبقه من علماء ومن تبعه من أن وصول أعمال البر تصل إلى الميت ولو كانت من غير ولده .

فأجابة الرازى عن الأول ضعيفة ، والتكلف بادٍ فى كثير مما أوّل به السيد رشيد الأحاديث الصريحة الواضحة ، وفيما ذكره ابن تيمية من الصور التى ينتفع فيها الميت بعمل الحى ما يرد كل ما ذهب إليه رشيد رضا .

---

(١) رواه الدارمى وابن ماجة .

وأفعالهم ـ يؤثر تأثيراً سيئاً فى نفس المخالط لهم ، وهذا بعض ما يفهم من قوله تعالى فى آية أخرى : **﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينَّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾** [1] ، وفى آية ثالثة : **﴿وقد نزل عليكم فى الكتاب أنْ إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إنَّ الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً﴾** [2] .

والذى نزل عليهم فى الكتاب ، وأشارت إليه هذه الآية ، هو ما جاء فى الآية التى ذُكرت قبلها فى هذا البحث ، وفى قوله تعالى : **﴿انكم إذاً مثلهم﴾** تنفير شديد من مخالطة هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله ، ويستهزئون بها ، وقد فهم العلماء أن المماثلة هنا فى الكفر لإقرارهم عليه ، ورضاهم به ، ولنا أن نفهم أن المثلية ناشئة عن التأثر بهم ، وعدواهم من مخالطتهم ، فترتاب نفوسهم ، وتضطرب قلوبهم ، وإن لم يقروا هؤلاء المستهزئين على الكفر ، وإن يستشعروا رضاهم عنهم .

الثانى : أن الآية الكريمة : **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾** أشارت فيما أفهم إلى سرعة انتقال الأثر السيىء إلى الذين يركنون ، وذلك فى قوله تعالى : **﴿فتمسّكم النار﴾** بهذه الفاء التى تفيد ـ بمقتضى وضعها العربى ـ الترتيب مع التعقيب ، أى أن مسَّ النار مترتب على السكون إلى الظالمين ، وواقع عقبه مباشرة .

وتتفق مع هذا المعنى نظرية يؤيدها الواقع الذى ندركه بالملاحظة الدقيقة ذلك أنه قيل : إذا التقى اثنان أحدهما خيِّر ، والآخر شرِّير

---

(١) سورة الأنعام ـ الآية ٦٨ .

(٢) سورة النساء ـ الآية ١٤٠ .

غرست فى نفس الإنسان منذ الولادة شريرة بطبعها ، ومن هؤلاء شعراء العربية المتشائمون أمثال أبى العلاء المعرى الذى يقول :

ونحن فى عالمٍ صيغت أوائله

على الفساد ، ففىٌّ قولنا فسدوا

وقال فريق ثالث : إن الفطرة لا توصف بأنها خيِّرة أو شريرة ، وإن نفس الطفل بيضاء ، قابلة للخير والشر.

وقد حسم القرآن الكريم هذه القضية حين أوحى إلى رسوله أن الفطرة خيِّرة ، وأنها الدين القيم : ﴿**فأقم وجهك للدِّين حنيفاً فطرة الله التى فطر النَّاسَ عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدِّين القيم ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون**﴾ [1] .

فالإنسان يولد ، وبذور الفطرة السليمة مغروسة فى نفسه اعتقاداً وعملاً ، فلو ترك الطفل وشأنه دون مؤثرات خارجية لأدرك أن له خالقاً قادراً عليماً ، ولميّز بين الحسن والقبيح ، والحق والباطل ، والنافع والضار ، ولوجد فى نفسه الميل إلى كل ما هو خير .

كذلك يولد الطفل وفى تكوينه الروحى غرائز كلها ضرورية لحفظ حياته ، ولبقاء الجنس البشرى ، وذلك ما يشير إليه النبى ـ ﷺ ـ فى بعض أحاديثه عن الله تعالى : (**كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، وأمروهم أن يشركوا بى غيرى**) [2] .

ومعنى : (اجتالت الشياطين) حولتهم ، وأبعدتهم عن مقتضى الفطرة .

ففطرة الإنسان السليمة مغروسة فى نفسه ، لا يمكن لأحد أن

---

(1) سورة الروم ـ الآية ٣٠ .

(2) مختصر مسلم من حديث عياش بن حمار ، به وأتم منه .

الكفر ، كما تذكر الآية الكريمة : **﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾**[1] .

ثم يبدو فى مواقف أخرى ذليلاً ، ضارعاً إلى الله ، طالباً النجاة ، وقد جاء ذلك فى آيات كثيرة فى القرآن ، منها قوله تعالى : **﴿وإذا مس الإنسان ضرٌّ دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوّله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله﴾**[2] .

وهذه الآية ومثيلات لها تتضمن شأنين عجيبين من شأن بعض الناس فهذا الصنف من الناس يلجأ إلى الله إذا وقع فى الشدة ، فإذا زالت عنه ، وغمرته نعمة الله عاد إلى كفره دون أن يحجزه عقل ، أو يخجله حياء .

٣ ـ وقد حدثنا القرآن ـ أيضاً ـ عن بعض الميول والنزعات التى تتأصل فى الإنسان بفعل المؤثرات الخارجية ، فتتغلب على الفطرة .

فالإنسان (عجول) حتى أنه ليدعو على نفسه ـ أحياناً ـ بالشر دعاءه بالخير ، و **﴿إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسَّه الشر جزوعاً وإذا مسَّه الخير منوعاً﴾**[3] .

ولكن ليست هذه صفة عامة الناس ، بل منهم من لا يجزع إذا مسّه الشر ، ولا يمنع إذا ناله الخير ، وقد ذكر الله أوصاف هؤلاء ، بعد هذه الآية فى قوله سبحانه : **﴿إلّا المصلين ... الآيات﴾**[3]

---

(١) سورة الفرقان ـ الآية ٦٠ .

(٢) سورة الزمر من الآية ٨ .

(٣) سورة المعارج ـ الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٥.

والبغض والحقد والتربص تهدد ـ دائماً ـ أمنه وسلامه ، والحق نفسه يطارد القوى ، ويشعره دائماً بأنه ظالم متعدٌ ، وهذا نفسه عذاب نفسى لابد أن يصطلى به الكثيرون من أولئك الذين لا يتعاملون إلّا من منطق القوة .

ومن هنا ـ أيضاً ـ احتدمت الخلافات ، ونشبت الحروب بين الدول ، وتسابق علماؤهم فى اختراع أسلحة الدمار التى نعتقد أنها ستقضى على البشرية فى يوم من الأيام بعد أن تكون قد حطمت المقومات المعنوية ، وعكرت صفو الحياة فى الأحقاب التى تسبق العاصفة الهوجاء المدمرة .

ولو رجع الناس إلى فطرهم لهدتهم إلى أن الحق فوق القوة ، فيستريح الأفراد ، وتستقر الدول ، إذْ يسود ـ العدل ، وتتسع الحرية ، وتعمّ المساواة ، ويزدهر الإخاء القائم على الحب والخير .

ومن أهم المؤثرات على الفطرة ـ كما يشير القرآن الكريم ـ البيئة ، ولا ينكر أحد من علماء الاجتماع ما للبيئة من أثر على الأفراد والجماعات ، ولكن فضل القرآن أنه سبق ، وأن إشارته إلى ذلك فى غاية الدقة ، والصدق والعمق .

يقول الله تعالى مخاطباً النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن معه من المؤمنين : **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار﴾**[1] .

وقد أكثر المفسرون القول فى معنى الركون ، وفى بيان المراد من الظلم ، وفى ترتيب مسّ النار على هذا الركون ، ولكن لنا أن نفهم ـ والتعبير القرآنى لا يتأبى علينا ـ من الآية الكريمة أمرين :

الأول : أن الميل إلى الظالمين ـ مع ما فيه من الرضا بأقوالهم

---

(١) سورة هود ـ الآية ١١٣ .

ولكنه مغرور ، يدّعى أنه قهر الطبيعة ، وأنه من القدرة والجبروت بحيث يستطيع أن يقهر كل الأعداء ، وقديماً سخر شاعرنا المعرى من أمثال هؤلاء إذ يقول :

سمَّى ابنه أسـداً وليس بآمن
ذئباً عليـه إذا أطـل الذِّيبُ

والإنسان ضعيف أمام عواطفه ، فقد يكون ذا هيبة ومكانة فى قومه ، أو صاحب سلطان وجيوش ، أو ربيب ملك وسيادة ، ثم لا يقوى أمام عاطفة تسيطر عليه ، وتستبد به ، فيأتى من الأفعال ما ينكره هو على نفسه .

ولقد صدق العباس بن الأحنف إذ يقول :

وكم من كريم قد أضر به الهوى
فعـوده ما لم يكن يتعـوَّد

وصدق الآخر الذى قال :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى
إلى بعض ما فيه عليـك مقال

وقديماً أحب أحد الخلفاء المسلمين ثلاث جوار له ، فتدللن عليه مرة ، فترضاهن فتأبين عليه ، فقال فيهن أبياتاً كان منها :

ما لى تطاوعـنى البريـة كلهـا
وأطيعـهن وهـن فى عصـيانى

وصدق الله العظيم فى قوله سبحانه : **﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾**[1] .

---

(١) سورة النساء ــ الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

ترك كل منهما فى صاحبه أثراً ، والشرير أقواهما ، وأسرعهما تأثيراً .

وقد سبق الجاحظ علماء النفس إلى التنبه لهذا الأثر النفسى ، وذلك إذ يقول : لا تجالس الحمق والمفسدين فإنه يعلق بك من مجالستهم من الفساد ما لا يعلق بك من مجالسة العقلاء دهراً من الصلاح ، فإن الفساد أشد التحاماً بالطباع .

وقد نقل بعض ما قيل فى سرعة انتقال الخلق السىء : إنى لأجالس الأحمق ساعة فأتبين ذلك فى عقلى .

وينبغى أن نؤمن إيماناً راسخاً أن لكل كلمة فى القرآن ، بل لكل حرف دلالة عميقة ، فهمها من فهمها ، وجهلها من جهلها ، ولا يضر جهلنا بهذه الدلالة فلا بد أن يجىء من يفهمها على وجهها ، أو يفهم منها معنى آخر لم يهتد إليه من سبقوه ، فلا غرو أن يكون لهذه الفاء : «فتمسكم» معانٍ ، هذا الذى أشرنا إليه بعضها .

٢ ــ ولكن هذه الفطرة لا تموت ، بل قد تنفض عن جوهرها الغبار ، وتبدو على حقيقتها عندما تضطرها ظروف الحياة إلى الظهور .

فالقرآن الكريم حدثنا أن أولئك الذين كفروا بدعوة محمد ، وبالغوا فى العناد والجحود ، وأصروا على عبادة الأوثان كانوا إذا سئلوا من خلق السموات والأرض يقولون : خلقهن العزيز العليم .

وحدثنا القرآن أن الإنسان يعرض عن الله ، وقد ينسى أن له خالقاً قادراً ، فإذا نزلت به كارثة ، أو حاقت به محنة فى نفسه أو ولده أو ماله رجع إلى الله ، ودعاه منيباً إليه ، مخلصاً له ، طالباً كشف الضر عنه .

هذا الإنسان الذى يبدو فى موقف بالغ الوقاحة ، أصلع

مقاومة الميل إلى النساء ، ولا يحمل ثقل التضييق عليه فى الاستمتاع بهن ، فمن رحمته تعالى لم يحرم عليه منهن إلّا ما فى إباحته مفسدة عظيمة)[1] .

والإنسان ضعيف فى عقله ، فمها خيِّل إليه أنه وصل إلى المجاهيل من هذه الأكوان فهو لا يزال فى أول الطريق .

جاب البحار ، وأخضع القفار ، ووصل إلى القمر ، واخترع المهلكات والمدمرات وأغنى الحياة بما اخترع من أسباب الرقى والتقدم ، ولكن هل عرف نفسه التى بين جنبيه ؟ هل يستطيع بعلم ويقين أن يجيب عن هذه الأسئلة : ما الروح ؟ ما الفكر ؟ ما العقل ؟ وأين تكمن هذه القوى ؟ .

وهو يعرف ـ ولا شك ـ أن القمر الذى وصل إليه لا شىء بجانب الملايين من الكواكب السيارة التى تبلغ خمسمائة ملايين من المجاميع مضروبة فى (٥) أمامها أربعة عشر صفراً ، وفى كل مجموعة منها يوجد مائة مليار من النجوم ، ويقدر علماء الفلك أن أقرب مجموعة من النجوم ، وهى التى نراها فى الليل كخيوط بيضاء دقيقة تضم حيزاً مداه مائة ألف سنة ضوئية[2] .

فأين هو من هذا الكون الذى لا يدرك مداه لا فى الحقيقة ولا فى الخيال ؟ وهل الشمس والقمر والأرض إلّا قطرات صغيرة فى محيط الكون الكبير ؟

فقد كشف أخيراً أصغر نجم عمره ألفا سنة ، وهو قدر الشمس أربعين مرة ، وحرارته ضعف حرارتها عشر مرات ، ومعروف أن

---

(١) تفسير المنار جـ ٥ ص ٣٧ .
(٢) ذكر ذلك الباحث وحيد الدين خان الباكستانى فى كتابه : (الإسلام يتحدى) .

أولئك الدائمون على صلاتهم ، المحافظون عليها ، المؤدون لحق السائل والمحروم ، المصدقون بيوم الدين ، المشفقون من عذاب ربهم ، الحافظون لفروجهم عما حرّم الله ، المؤدون لأماناتهم ، القائمون بشهاداتهم : **﴿أولئك فى جناتٍ مكرمون﴾** .

والإنسان يحب المال حباً جماً ، كما يقول سبحانه : **﴿إنَّ الإنسان لربِّه لكنودٌ . وإنَّه على ذلك لشهيد . وإنه لحبِّ الخير لشديد﴾** [1] .

وقد ذكر أن المراد بالإنسان فى هذه الآية شخص معين هو : (قرط بن عبدالله) [2] ، وقيل المراد الكافر .

فهو يجحد نعمة الله عليه ، وقليل من عباد الله الشكور ، وهو يشهد على نفسه بذلك ، لا ينكره ، ولا يمارى فيه ، وهو حريص على جمع المال ، محب ، شديد الحب له .

والإنسان ـ مع تبجحه وتعاظمه ، وتعاليه بقوته ـ خلق ضعيفاً ضعيف فى جسمه ، تقتله الجرثومة التى لا ترى إلّا بالمجهر ، ويقلقه اليسير من الألم ، يصيب عينه أو أذنه ، أو أى عضو آخر فى جسمه ، وتنهار قواه الجسمية والنفسية حين ينزل الموت بعزيز لديه ، أو تجتاح جائحة ماله .

وهو ضعيف أمام غضب الطبيعة حين تعصف الرياح ، أو يهيج البحر ، أو تثور البراكين ، أو ترجُّه الزلازل ، وعلى مبلغ ما وصل إليه من علم لم يصل إلى ما يدفع عنه خطراً من هذه الأخطار ،

---

(١) سورة العاديات ـ الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ .

(٢) بصائر ذوى التمييز جـ ٢
أما آية : **﴿إن الإنسان خلق هلوعا ..﴾** فقيل : نزلت فى الأخنس بن شريق ، ولكن العموم ظاهر فيها بدليل الاستثناء .

أن يبصره الطريق ، وأن يهديه سواء السبيل ، وأن يلهمه رشده ، وأن يبعده عن طريق الغواية ، فأمره ونهاه ، ووعده وأوعده ، ورغبه ورهبه ، وأوضح له الفضائل ، وبيّن له الرذائل ، وأودع ذلك كله فى القرآن الكريم ، فكانت آياته شارحة للقوى المبثوثة فى فطرته ، ومذكرة بما لا يجهله عقله .

ثم غرس فى فطرة الإنسان ما يراقب سلوكه ، ويحرس تصرفاته ، وحاطها بسياج من التعاليم تجعلها يقظة دائماً .

كما أودع فى نفسه قوة تعينه على تحصيل الفضائل ، ونبذ الرذائل .

أما المراقب فهو الضمير ، وأما القوة المعينة فهى الإرادة .

وتكاد تجمع كلمات المفسرين على أن المراد بالضعف هنا عدم الصبر عن الشهوات ، ويضيف بعضهم عدم الصبر على مشاق الطاعات ، وقليل من رأى أن الضعف هنا عام .

عن سعيد بن المسيب : (ما أيس الشيطان من بنى آدم قط إلّا أتاهم من قبل النساء ، فقد أتى علىّ ثمانون سنة ، وذهبت إحدى عينىّ ، وأنا أعشو بالأخرى ، وإن أخوف ما أخاف علىَّ فتنة النساء) .

ذكر ذلك الزمخشرى عند تفسيره لهذه الآية بعد أن فسر هو ضعف الإنسان المراد فيها بأنه : (لا يصبر عن الشهوات ، وعلى مشاق الطاعات) .

وقال الفخر الرازى : (والمعنى أنه تعالى لضعف الإنسان خفف تكليفه ، ولم يثقل ، والأقرب أن يحمل الضعف فى هذا الموضع لا على ضعف الخلقة ، بل يحمل على كثرة الدواعى إلى اتباع الشهوات واللذات ، فيصير ذلك كالوجه فى أن يضعف عن احتمال خلافه) .

ونقل عن القاضى عبدالجبار بأن التأثير فى هذا الباب لضعف الداعية وقوتها ، لا لضعف البدن وقوته ، ووصف الرازى كلام القاضى بأنه (كلام حسن) .

وقال الخازن : (ضعيفاً . أى فى قلة الصبر عن النساء ، فلا صبر له عنهن ، وقيل : إنه لضعفه يستميله هواه فهو ضعيف العزم عن قهر الهوى ، وقيل : هو ضعف فى أصل الخلقة لأنه خلق من ماء مهين)[1] .

وقال السيد رشيد رضا : (وخلق الإنسان ضعيفاً لا يقدر على

---

(١) جـ ١ ص ٤١٣ .

وإن لم يقارنها الفعل : **﴿لله ما فى السموات وما فى الأرض وإنْ تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾** [١] .

فإذا علم الإنسان أن الله مطلع عليه ، وأنه له بالمرصاد ، وأنه محاسبه على ما يخفيه فى نفسه كان حذراً دائماً يجدِّد فى كل حين صلته بربه ، ويستشعر الخوف من غضبه ، ويحاسب نفسه على الخاطرة تخطر له ، فإذا استقام على ذلك استيقظت القوة الكامنة فى نفسه ، والتى تشبه الجوهرة ، ووقفت له بالمرصاد كلما همّ بالخروج عن الجادة نبهته ، فإذا وقع فى المنكر ألهبته بسياطها ، ونغصت عليه حياته ، وانتهضت فى نفسه حاكمة ، قاسية الحكم تحذره أن يعود لمثلها .

ثم ينبه القرآن الإنسان إلى أنه لم يخلق عبثاً ، وأنه راجع إلى ربه ، وأن عليه واجبات نحو ربه ، ونحو نفسه ، ونحو المجتمع الذى يعيش فيه : **﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنَّكم إلينا لا ترجعون﴾** [٢] .

وأن الله ـ سبحانه ـ لا يهمل الإنسان ، فهو لا يتركه سدى ، ولا يدعه هملاً .

وفى القرآن الكريم آية على كل مسلم أن يتدبرها غاية التدبر ليكون دائماً خائفاً راجياً ، محاسباً لنفسه ، خشية أن يقع ما لم يكن له فى حسبان ، تلك هى قوله وتعالى : **﴿يا أيُّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرَّسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أنَّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنَّه إليه تحشرون﴾** [٣] .

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٢٨٤ .
(٢) سورة (المؤمنون) ـ الآية ١١٥ .
(٣) سورة الانفال ـ الآية ٢٤ .

أصغر نجم عرف فى الماضى كان عمره خمسين ألف سنة[1] .

وأين هو من مخ الإنسان الذى قالوا إن به ألف مليون خلية عصبية ؟ وهذه الأذن الصغيرة التى قالوا إن فيها عشرة آلاف خلية سمعية ؟

ويظهر ضعف عقل الإنسان بكل وضوح عند أولئك الذين ينكرون وجود الله تعالى ، أو يشركون به وثنا أو صنما أو شيخاً .

وقد أنكر القرآن على الذين يشركون بالله أن لهم عقولاً ، وشبههم بالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً ، كما نطق بذلك القرآن الكريم .

لقد قال أحد عقلائهم كلمة رائعة ، قال : (منذ أعوام لم أكن موجوداً على هذه الأرض ، وبعد أعوام لن أكون موجوداً ، فهل يصح لمخلوق هذه حدود حياته أن ينكر وجود الله ؟ ! !) .

وقال أحد العلماء الظراف أن الحمار أعقل من الكافر . قيل له : كيف ؟ قال : لأن الحمار إذا ضرب التفت وراءه مدركاً أن له ضارباً ، والكافر ينكر أن له خالقاً .

وصدق الله : **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾**[2]

هذا هو الإنسان المليء بالمتناقضات ، المتنكر للفطرة الصافية ، الجاهل بما لا يحصى من أسرار الكون ، أسير الأهواء والشهوات ، جاحد النعم ، عبد التقاليد الموروثة ، هو الذى أراد الله ـ سبحانه ـ

---

(١) نشر ذلك فى صحيفة (الندوة) السعودية ، فى عددها الصادر بتاريخ ١٥ من ربيع الأول سنة ١٣٩٨هـ .

(٢) سورة الأعراف ـ الآية ١٧٩ .

وقال أبوبكر الطمستانى : من صحب الكتاب والسنة ، وتغرب عن نفسه وعن الخلق ، وهاجر بقلبه إلى الله فهو الصادق المصيب[1] .

ومن كلمات الجنيد ـ رحمه الله ـ : لو أقبل صادق على الله ألف ألف سنة ، ثم أعرض عنه لحظة لكان مافاته أكثر مما ناله .

ومن كلام الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ طوبى لمن استوحش من الناس ، وأنس بربه ، وبكى على خطيئته .

بمراقبة الله سبحانه وتعالى ، وبدوام محاسبة النفس ، تحيا الضمائر ، (وبتصحيح الضمائر تغتفر الكبائر) كما يقول السقطى ـ رحمه الله ـ .

هذا . والقرآن الكريم يسمى هذا الرقيب على الإنسان : (النفس اللوامة) وتقابلها فى بيانه الحكيم (النفس الأمارة) .

وعلماء النفس يطلقون على الأولى : الرقيب أو الذات العليا ، ويطلقون على الثانية : الذات الدنيا .

وقد حدثنا القرآن الكريم عن ضمائر استيقظت بعد أن غفلت ، وبعد أن أسرف أصحابها على أنفسهم .

ففى أول قصة قتل رويت بدمه الأرض من نفس أحد ولدى آدم الذى قتله أخوه ، ثم عجز عن دفنه يبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ، وحين نظر إلى هذا الطائر الأعجم يبحث ليكرم غراباً بمواراة جثته ندم ، وقال ـ كما أخبر القرآن ـ : **﴿يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين﴾**[2] .

---

(١) مدارج السالكين جـ ٢ ص ٤٦٧ .

(٢) سورة المائدة ـ الآية ٣١ .

الفصل الثاني

الضميـــــر

قد يتخلق الإنسان بما يتهيأ له من الفضائل ، ويتأبى على ما يحاول أن يتسرب إلى نفسه من الرذائل ، ولكنه لا يأمن ـ على المدى الطويل ـ أن ينحرف ، أو يجرفه التيار ، لذلك كرمه الله تعالى فأودع فى فطرته حارساً صارماً ، يراقب ، ويأمر وينهى ، ويؤنب ، ويخز وخز الإبر إذا وقع الإنسان فيما تنكره عليه فطرته .

ولما كان لا بد لصلاح الإنسان من استمرار هذا المراقب يقظاً ، قوياً ، غالباً ، فقد كان من تدبير الله تعالى أن تتضمن بعض آيات القرآن ما ينبهه دائماً .

أرشد القرآن الكريم إلى أن الله سبحانه يعلم السرّ وما هو أخفى من السرّ ، وأنه عزّ وجلّ : ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور**﴾[1] ، وأنه مع الإنسان أينما كان ، بل هو أقرب إليه من حبل الوريد : ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾[2] . وأن عليه من الملائكة حفظة يحصون له حسناته ، ويعدون عليه سيئاته : ﴿**وإنَّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون**﴾[3] .

والله سبحانه سيحاسب على النية متى وصلت إلى درجة العزم

---

(١) سورة غافر ـ الآية ١٩ .
(٢) سورة (ق) ـ الآية ١٦ .
(٣) سورة الانفطار ـ الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

فقد تخلف عن غزوة تبوك نفر منهم ، ثم لاموا أنفسهم على التخلف : ﴿**وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم**﴾[1] ثم تاب الله عليهم .

وتروى كتب السيرة أن صحابياً يدعى أبا لبابة ـ رضى الله عنه ـ وقع فى خطأ ثم ندم ندماً شديداً ، فربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد ـ مسجد المدينة ـ وأقسم لايفك نفسه ، ولا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى يموت ، أو يتوب الله عليه ، فمكث سبعة أيام حتى خرَّ مغشياً عليه ، ثم تاب الله عليه ، وأنزل قوله سبحانه : ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً عسى الله أن يتوب عليهم إنَّ الله غفورٌ رحيم**﴾[2] .

وفى رواية أنهم كانوا جماعة أحدهم أبولبابة تخلفوا عن غزوة تبوك ، ثم ندموا فربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، وظلوا كذلك حتى تاب الله عليهم .

ولا تزال فى مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ سارية تحمل اسم أبى لبابة ، تذكِّر الوافدين على هذا المسجد بذلك الصحابى الجليل الذى بلغ منه الندم على فعلته كل مبلغ فأنزل الله توبته من السماء فى قرآن يُتلى .

وفى القرآن الكريم ذكر لمواقف أخرى تمثلت فيها يقظة الضمائر ، ولا شك أن فى ذكر كل هذه القصص عبرة ، ودعوة للغافلين أن يكون لهم فى هؤلاء أسوة حسنة .

---

(١) سورة التوبة ـ الآية ١١٨

(٢) سورة التوبة ـ الآية ١٠٢ .

فالقلوب فى يد الله يقلبها كيف يشاء ، وقد يحول سبحانه بين المرء وقلبه ، هذا القلب الذى إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله .

وقد ورد أن الإنسان قد يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وقد يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .

لذلك ينبغى أن يخاف المتقون أن ترد عليهم أعمالهم ، وأن يكونوا فى كل لحظة على حذر من سخط الله ، كما ينبغى ألا ييأس المسرفون من رحمة الله ، وعليهم أن يتقربوا إلى الله بالإقلاع عن الذنوب ، وأن يرجوا رحمته بعمل الصالحات ، وبالطمع فيها ، لكن مع العمل .

وجُمّاع الأمر كله هو ألا يغيب الله لحظة عن نفوسهم ، فإن أكبر الضرر إنما يأتى من الغفلة عن رحمة الله وغضبه ، والمؤمن الحق هو الذى يذكر الله دائماً ولا يقدم على عمل من الأعمال إلّا بعد أن يتحقق له أنه مما يرضى الله عنه .

ومن الكلمات المضيئة فى هذا المعنى هذه الأقوال :

ليس يخطر الكون ببالى ، وكيف يخطر الكون ببالى بعد معرفة المكون .

الزهد تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء .

اليقين لا يساكن قلباً فيه سكون إلى غير الله .

من أعلام اليقين : النظر إلى الله فى كل شىء ، والرجوع إليه فى كل أمر ، والاستعانة به فى كل حال [1] .

---

(١) مدارج السالكين . جـ ٢ ص ٣٩٨ . والكلمة الأخيرة تنسب لذى النون المصرى . وتنسب كلمة قريبة منها ليحيى بن معاذ رحمه الله .

عواقبه السيئة خافية ، ويقترف الذنب وهو يعلم مغبة ارتكابه ، وما ذلك إلّا لأنه فقد الإرادة القوية التى تغالب الشهوات ، وتكبح جماح النفس .

والأمر كذلك فى فعل الخير ، فالإنسان يعرف أنه خير ، وأن فعله يعود عليه بالنفع فى دنياه وفى آخرته ، ولكنه حين يهم به تجذبه جواذب من لؤم النفس ، ورداءة الطبع ، فلا يجد فى نفسه القدرة على تحقيق ما هم بفعله .

لذلك عُنى القرآن بتقوية الإرادة عند الإنسان ، حتى إذا دعاه العقل وأرشده الضمير أقدم غير مستجيب لنزعات الشيطان ، ولا خاضع لأهواء النفس فالشيطان يعده الفقر ، ويأمره بالفحشاء ، والنفس ـ إذا لم تكن سوية ـ تُسَوِّل له التقصير فيما يجب عليه من فعل الخير ، فإذا عصاهما استجاب لداعى الضمير ، وأنفذ ما تدفعه إليه الإرادة الواعية .

وقد صدق البوصيرى فى قوله :

وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإن هما محضـاك النصح فاتـهم

ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً
فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

والقرآن الكريم يذكِّر أبناء آدم بالعداوة القديمة التى كانت بين الشيطان وأبيهم آدم ، ويدعوهم إلى أن يأخذوا العبرة مما كان من أثر هذه العداوة ، فقد أخرج الشيطان أبويهم من الجنة ، وكان سبباً فى هبوطهما إلى هذه الأرض التى لقيا فيها هما وابناؤهما من ألوان الشقاء

فهذا أول قتل كان على وجه الأرض ، وأول غدر أخ بأخيه ، وأول ندم صحب هذه الفعلة الشنعاء ، ولعل القرآن الكريم ـ والله أعلم بمقاصد كلامه ـ يشير بذلك إلى أن الندم ، ويقظة الضمير معنيان مستقران فى فطرة الإنسان ، وأن الجانى ما إن ينتهى من جنايته حتى يصيح به صوت من داخله : لم فعلت ؟ ليتك لم تفعل ! !

وفى قصة يوسف ـ عليه السلام ـ مع إخوته التى قص علينا القرآن نبأها ، موقفان تتجلى فى كل منهما يقظة الضمير .

موقف إخوة يوسف الذين دبروا قتل أخيهم ، وكذبوا على أبيهم ، وأصابوه بأقسى ألوان الألم ، من فراق ابنه الحبيب إلى نفسه ، ثم فى نهاية المطاف حين عرفهم يوسف ، وعرفوه ، يقولون ـ كما نقل عنهم القرآن ـ : **﴿تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾** [1] .

وموقف امرأة العزيز التى راودت يوسف عن نفسه ، واتهمته بأنه بدأها بالمراودة وأصرت ـ بعد ظهور براءته ـ على أن يسجن ، فمكث فى السجن بضع سنين ، ثم استيقظ ضميرها فكان منها فى مجتمع علية القوم ، وأمام ملك مصر ما قصه القرآن : **﴿قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحقُّ أنا راودته عن نفسه وإنَّه لمن الصادقين﴾** [2] .

وقد كان شىء من ذلك فى عهد النبى ـ ﷺ ـ من بعض صحابته .

---

(١) سورة يوسف ـ الآية ٩١ .

(٢) سورة يوسف ـ الآية ٥١ . وحصحص الحق : ظهر وانكشف .

الآيتين قال : (وأعلم أن من علم أن له عدوا لا يهرب منه ، وجزم بذلك فإنه يقف عنده ، ويصبر على قتاله ، والصبر معه الظفر ، فكذلك الشيطان ، لا يقدر الإنسان أن يهرب منه ، فإنه معه ، ولا يزال يتبعه ، إلا أن يقف له ويهزمه ، فهزيمة الشيطان بعزيمة الإنسان ، فالطريق الثبات على الجادة ، وإلا تكال على العبادة) .

فهى ـ إذاً ـ معركة بين عدوين ، وليس من طبيعة الأشياء أن يستسلم المقاتل لعدوه وفيه غريزة الدفاع عن النفس ، وقد بينت له عاقبة الاستسلام أن يكون من أصحاب السعير ، والقتال عدته العزيمة الصادقة ، والارادة الصُّلبة .

وإذا كان القرآن فى الآية الأولى نادانا بوصف البنوة للأب الأول وفى الآية الثانية نادانا بوصف الإنسانية فقد نادانا بوصف الإيمان ، ووجه إلينا أوامر من شأنها أن تشدّ العزائم ، وتقوى الإرادات ، وتعودنا الصبر والصدق فى كل ما نعالج من شئون الحياة .

يقول الله عزّ وجلّ : **﴿يأيُّها الذين آمنوا إذا لقيتم الَّذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبرهُ إلَّا متحرِّفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾**(1)

فالله ـ سبحانه ـ يأمر المؤمنين بالثبات أمام العدو ، ويحذرهم من الفرار يوم الزحف ، فإن الفرار من كبائر الذنوب ـ كما جاء فى الحديث النبوى الشريف ، فهوـ إذاً ـ الثبات حتى النصر أو الموت ، ولا شىء يقوى إرادة الإنسان ، ويزيل الخوف والضعف

---

(1) سورة الأنفال ـ الآيتان ١٥ ، ١٦ والمتحرف : المنحاز إلى مكان يراه أحوج إلى القتال فيه . المتحيّز : الضائر إلى جماعة من المقاتلين يرى أنهم فى حاجة إليه للنصر .

الفصل الثالث

تربيـــة الإرادة

قد يعرف العقل ، ويستيقظ الضمير ، ولكن الهوى يتحكم ويغلب ، لأن النفس فقدت الإرادة الصارمة التى يستعين بها كل من العقل والضمير فى رد صاحبهما عن طريق الشر والغواية .

وقديماً قال أحد الفلاسفة : إن الإنسان لا يفعل الشر وهو عالم به ، يرى أن العلم بالشر ومضاره ، وسوء عواقبه يمنعه من الوقوع فيه .

ولكن القرآن ، وواقع النفس البشرية يؤكدان أن هذا غير صحيح ، وأن الإنسان قد ينغمس فى الشر وهو على يقين من أنه شر ، وعلى بصيرة تامة بما ينجم عن اقترافه من أضرار ، يقول القرآن الكريم : ﴿**أفرأيت من اتخذ آلهة هواه وأضَلَّه الله على علم**﴾[1] ، وقد وصف الله تعالى قوماً فى القرآن بأنهم يقولون على الله الكذب وهم يعلمون ، وبأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون .

فليس صحيحاً أن الإنسان لا يرتكب الخطيئة إلّا حين يكون جاهلاً بها وما غناء العلم إذا لم يكن معه دين يحجز عن الشر ، أو وجدان ينفر من الخطيئة ؟ .

ونحن نعرف من أنفسنا ، ومن غيرنا ممن يتاح لنا أن نطلع على خفايا نفوسهم أن الإنسان يقدم على الشر وهو لا تخفى عليه من

---

(١) سورة الجاثية ـ الآية ٢٣ .

ذلك لهم تارة بأنهم (الأعلون) ، وتارة بأنهم يرجون من الله ما لا يرجو أعداوهم **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾**[1] . **﴿ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾**[2] . **﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾**[3] .

وهكذا يرفع القرآن من معنويات المسلمين ، ويقوى عزائمهم بهذه النواهى وبغيرها .

وإذا قويت الإرادة على مواجهة الصعاب ، وخوض غمرات القتال أصبحت صفة لازمة لصاحبها كلما وجد فى نفسه حاجة إليها .

وهكذا يرشد القرآن إلى بناء الذات الإنسانية المثلى ، ويحض على بنائها ، ويحذر من مغبة التهاون فى هذا البناء ، فهو يشرع لها ما يحفظ لها كل ما تحتاجه حياتها ، ثم يبين لها طريقى الخير والشر ، ثم يوقظ فيها الضمير الخير الواعى ، ويبنى الإرادة القوية الحازمة .

فإذا تمت للإنسان كل هذه المقومات فهو الإنسان السوىّ الذى يريده الإسلام ، بل الذى يريده كل باحث عن المثل الأعلى فى هذا الجنس الذى فضله الله بالعقل ، وميرزه بالوجدان .

بل هو الإنسان الذى كان يبحث عنه الفيلسوف اليونانى (ديوجين) وقد أمسك بيده مصباحاً يطوف به الطرقات فى (أثينا) ،

---

(١) آل عمران ١٣٩ .

(٢) النساء ١٠٤ .

(٣) محمد ٣٥ - ومعنى (لا يتركم أعمالكم) لا ينقصكم من أعمالكم شيئاً ، بل يوفى جزاءها لكم .

والبلاء والهموم ما لقوا ، ولازالوا فى كل يوم يلقى الخلف كما لقى السلف : ﴿**يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنَّة**﴾[1] .

فالقرآن لم ينادهم بأيها الناس ، ولا بيأيها الذين آمنوا ، وإنما ناداهم بالنبوة لآدم ليذكرهم أنهم أبناء هذا النبى الذى قضى الله عليه هو وزوجه بالخروج من الجنة بسبب وسوسة الشيطان لهما ، فإذا كانوا مقدّرين حق الأبوة وحق الأمومة ، وإذا كانوا خائفين أن يسلك بهم الشيطان المسلك الذى يبعدهم عن الجنة فليحذروا فتنة هذا الشيطان ، وليكن عندهم من الحزم والارادة وقوة الأنفس ما يواجهون به إغراء الشيطان الذى لم يقف له أبوهم النبى العظيم .

ولا شك أن الولد كلما همّ أن يطيع عدواً سبق أن غرر بأبويه تنبهت فى نفسه معانى البنوة ، ومعانى الكيد والتغرير ، وخاف سوء المصير ، فيحزم أمره ، ويستعصم بإرادته ، ويخالف النفس والشيطان .

وكما ذكّرهم القرآن بفعلة الشيطان هذه مع أبويهم أكد لهم أن الشيطان لهم عدو كما كان ، لم تخف عداوته ولم تضعف ، وأنه لا يريد بهم إلّا ما يريده الخبيث الطاغية بأعدائه : ﴿**يأيُّها النَّاسُ إنَّ وعد الله حقٌ فلا تغرنَّكم الحياة الدنيا ولا يغرَّنكم بالله الغرور إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوا إنَّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾[2] .

وقد فسر الفخر الرازى (الغرور) هنا بالشيطان ، وبعد أن شرح

---

(١) سورة الأعراف ـ الآية ٢٧ .
(٢) سورة فاطر ـ الآيتان ٥ ، ٦ .



من نفسه أكثر من أن يستهين بالحياة فى سبيل العقيدة .

وقد امتحن الله سبحانه وتعالى المؤمنين فى مبدأ الدعوة بما هو أشق وأقسى ، ومما يدل على أن نفوس المؤمنين ـ آنذاك ـ لم تكن من لحم ودم ، وإنما كانت أرواحاً خالصة ، وإشراقات وأنوار ، وعزائم وإرادات ، وصدقاً وصبراً .

امتحنهم بأن يثبت الواحد منهم للعشرة من الرجال ، ثم خفف عنهم ، وألزمهم أن يثبت الواحد للرجلين ، وأيّاً ما كان فذلك ما لا يقوى عليه إلّا عزائم الرجال بصدق الإيمان ، وقوة اليقين .

يقول تعالى : **﴿يأيُّها النبى حرِّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنَّهم قومٌ لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾** [1] .

وقد نجح المسلمون فى الحالتين فكانوا دائماً يقاتلون جيوشاً أكثر منهم عدة وعدداً وينتصرون .

ويحدثنا التاريخ عن حروب النبى ـ ﷺ ـ وعن حروب الخُلفاء الراشدين من بعده ، وعن حروب العرب فى الأندلس ، وعن حروب التتار والصليبيين ، وغيرها ، ولكن كان ذلك حين كان القرآن يملأ الصدور ، ويوجه القلوب ، ويشد العزائم التى تستمد النصر من الله تعالى ، ثم من صدق عزائمهم ، وخالص إيمانهم .

وقد نهى القرآن الكريم المؤمنين عن الضعف والوهن ، وعلّل

---

(٢) سورة الأنفال ـ الآيتان ٦٥ ، ٦٦ .

والأخلاق الفاضلة التى حث القرآن على التحلى بها كثيرة ، وهى الصفات التى كان يتحلى بها النبى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ، فقد سئلت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن خلق النبى فقالت : كان خلقه القرآن[1] .

وأخلاق القرآن تهدف إلى تحقيق إنسانية فاضلة ، ومجتمعات صالحة ، وحياة كريمة يعيش فيها بنو البشر أخوة متحابين متعاونين ، تسود بينهم المحبة ، ويحكم صلاتهم الإخاء ، وتظلل جماعاتهم المساواة ، ويرتفع من بينهم الظلم والطغيان ، والزور والبهتان ، ويعود غنيُّهم على فقيرهم بالعطف والخير والمعاونة ، ويحمى قويهم ضعيفهم من تسلط الأهواء ، وتحكم الاستبداد ، وطغيان الأحقاد ، ويحلم حلماؤهم على سفهائهم ويعاملونهم بالرفق والأناة والصبر ، ما لم يفض السفه إلى فساد أو ظلم فحينئذ ينبغى أن يضرب الجميع على أيديهم ، ويردوهم طائعين أو كارهين إلى شريعة الحق والعدل .

ولقد يطول بنا الحديث ، ويمتدُّ نفسَ القول لو حاولنا إحصاء هذه الأخلاق الفاضلة ، ووقفنا عند كل رذيلة من الرذائل الفردية والاجتماعية ، فنكتفى بأن نُلم بأمهات الفضائل ، وأصول الرذائل كما تحدث عنها القرآن .

يقول الله تعالى : **﴿إنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلَّكم تذَّكرون﴾**[2] .

قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن هذه الآية : هى أجمع

---

(١) أخرجه مسلم والنسائى وأبوداود والدارمى .
(٢) سورة النحل ـ الآية ٩٠ .

ولما سئل عمَّ تبحث ، وأنت تطوف بمصباحك فى رابعة النهار ؟
فقال : أبحث عن الإنسان فلا أجده !

هو يبحث عن الإنسان ، وقد امتلأت الطرقات بالناس ، فهم عنده عدم ، هو يريد إنساناً خاصاً ، ذلك الذى أرشد إلى بنائه القرآن الكريم .

وهو الإنسان الذى افتقده الشاعر العربى فلم يجده فقال :

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم
الله يعلم إنى لم أقل فَنَدا
إنى لأفتح عينى حين أفتحها
على كثير ولكن لا أرى أحداً

أمر الله ـ سبحانه ـ بالعدل فى الحكم بين المتخاصمين ، وفى الشهادة التى تعين على حكم عادل ، قولاً وعملاً ، قولاً بأن يحكم القاضى ، أو من يرتضيه الخصوم حكماً بينهم وبأن يؤدى من يعرف الحق شهادته دون تزييف أو تحوير أو تزوير ، وعملاً بأن يقسم بين أصحاب الحقوق بالسوية .

وقد شدد القرآن فى الأمر بالعدل : **﴿إنّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إنّ الله نعمّا يعظكم به إنّ الله كان سميعاً بصيراً﴾**[1] .

فهو أمر صريح واضح بأداء الأمانة ، والحكم بالعدل ، وهو صادر من الله تعالى الذى ينبغى أن يطاع أمره ، وينفذ حكمه ، وقد جاء هذا الأمر فى أسلوب مؤكد ، وبصيغة فعل الاستقبال التى تدل على أن هذا الأمر متجدد ، مع ما لهاتين الفضيلتين ـ أداء الأمانة ، والحكم بالعدل ـ من مزايا لا تحصى فى استقرار الحياة الإنسانية الفاضلة ، ولذلك أثنى الله عليهما بأنهما من أعظم ما وعظ الله به عباده : **﴿نعما يعظكم به﴾** .

ثم ختمت الآية بما يحبب فى امتثال هذين الأمرين ، ويبغض التهاون فى تنفيذهما ، فالله ـ سبحانه ـ وهو خالقهم ورازقهم ، والعليم بما يصلح شئونهم ، ويسعد حياتهم ـ الله سميع بصير ، خبير بكل ما يقولون وما يفعلون ، بل بما يحدثون به أنفسهم .

وقد أمر ـ سبحانه ـ بإنفاذ العدل مهما اعترضه من موانع ، فالحق لابدَّ أن يقال ، والحكم العادل لابدَّ أن يصدر ، ولا ينبغى أن تكون العداوة أو البغضاء عائقاً بين الحاكم والعدل ، كما لا

---

(١) النساء ـ الآية ٥٨ .

الباب الخامس

الفصل الأول

التَّحـــلى بالفضـــائل

فحين يستيقظ الضمير ، وتقوى الإرادة ، ويرشد العقل ، ويخبو الهوى وتضمحل النزعات الشريرة لا يكون هناك عائق بين الإنسان ، وبين التحلى بأنبل الصفات وأعلاها ، وتنسدُّ أمام السالك طرق الغواية والفساد والرذيلة .

وقبل أن أشير إلى أهم الفضائل التى أكد القرآن الكريم عليها أحب أن أؤكد أن كل ما أمر الله به ينسجم مع الفطرة السليمة ، وتقره العقول المنصفة ، وأن كل ما نهى عنه تأباه الفطر التى فطر الله الناس عليها ، وتنكره العقول التى لا تتوزعها الأهواء ومن هنا قيل : الإسلام دين الفطرة ، والإسلام دين العقل .

ولقد قيل لبعض الأعراب حين أسلم لما عرف دعوة محمد ـ ﷺ ـ عن أى شىء أسلمت ؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله ؟ . فقال : ما أمر بشىء فقال العقل : ليته نهى عنه ، ولا نهى عن شىء فقال العقل : ليته أمر به ، ولا أحل شيئاً فقال العقل : ليته حرمه ، ولا حرم شيئاً فقال العقل : ليته أباحه[1] .

---

(١) ابن قيم الجوزية ـ مدارج السالكين جـ ١ ص ٢٣٥ .

والبغض فكثيراً ما يحملان الحاكم والشاهد على مجانبة الصواب ، وإنكار الحق ، ونهت الآيتان أن يكون شيء من ذلك مسوِّغاً لقول الزور ، أو الحكم بالباطل ، أوليِّ الألسنة عن الحق ، أو الاعراض عما أمر الله به .

ثم نلاحظ أن الآيتين ختمتا بفاصلة واحدة فيها وصف الله تعالى بأنه «خبير» ، والخبير هو العليم بدقائق الأمور ، فهو مطلع على أخفى خفايا النفوس ، فلا ينبغى أن تكتم الشهادة ، أو تحرف ، أو تحمل قوة باطنة من حب أو بغض على التجهم للحق ، والتنكر للعدالة .

وإذا تتبعنا آيات القرآن فى المواطن التى يتحتم فيها العدل نراه لم يهمل الأمر به حين يحتاج المتعاملان إلى أن يكتبا وثيقة بالدين الذى بينهما ، فأمر الكاتب الذى يكتب لهما أن يلتزم العدل ، وأمر المدين أن يملى هو على الكاتب ، وأن يتقى الله ربه ، فلا ينقص شيئاً من الحق ، ولا يحرف فى إملائه ، ولا يزيد ما ليس له :

﴿يأيها الَّذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمىً فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتبٌ بالعدل ولا يأب كاتبٌ أن يكتب كما علَّمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحقُّ وليتَّق الله ربَّه ولا يبخس منه شيئاً﴾ [1] .

وتشير الآية الكريمة إلى أن كاتب الدين ينبغى أن يكون على علم بالشريعة ، وعلى علم بنظام المداينات ، ولا يمتنع أن يكتب : (كما علمه الله) فإذا لم يأنس من نفسه القدرة على أن يصدر عن علم ، ويكتب بالعدل فليطلب السلامة ، ويمتنع عن الكتابة .

ولنلاحظ هنا الجمع بين وصف الألوهية ، ووصف الربوبية

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٢٨٢ .

آية فى القرآن للخير والشر ، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت فى كونه تبياناً لكل شىء وهدىً .

ولما علم أبوطالب عم النبى بنزول هذه الآية جاء لمجتمع قريش وقال : يا معشر قريش اتبعوا ابن أخى ترشدوا ، ولئن كان صادقاً أو كان كاذباً فإنه ما يأمركم إلّا بمكارم الأخلاق .

ويروى أن النبى – ﷺ – حين عرض نفسه على قوم من قبيلة شيبان ، ودعاهم إلى أن ينصروه قال له سيد من ساداتهم : إلام تدعونا يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله عليهم هذه الآية ، فقال الرجل : دعوت – والله – إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفِك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك[1] .

العـــــدل

هذه الصفة من أعم الصفات وأشملها ، فمعناها الاعتدال فى كل شىء ، وهى تتضمن جميع أصول الفضائل ؛ لأن الفضيلة وسط بين رذيلتين : فالشجاعة – مثلاً – وسط بين الجبن والتهور ، وتناول الطيبات مما أحل الله وسط بين الحرمان الذى يفرضه بعض المُغالين على أنفسهم كى يهذبوها – زعموا – بالتعذيب ، وبين الإسراف ، وتناول ما يحل ... وهكذا .

وقد عرضت فى مناسبة سبقت للعدل بمعناه العام ، وذكرت أنه ميزان الله فى الأرض .

وهنا أبين نظر القرآن الكريم إليه بمعناه الخاص ، وهو المعنى المشهور عند جمهرة الناطقين بالعربية .

---

(١) افلك : كذب ، ومصدره الافك . وظاهروا عليه : عاونوا عليه أعداءه .

قال الفيروز أبادى : (ويكون الإحسان فى الوقت ، وهو ألا يفارق حال الشهود ، وهذا إنما يقدر عليها أهل التمكن الذين قطعوا المسافات التى بين النفس والقلب ، والمسافات التى بين القلب وبين الله تعالى ، وأن تعلق همتك بالحق وحده ، ولا تعلق بأحد غيره ، فإن ذلك شَرك فى طريق الصادقين ، وأن تجعل هجرتك إلى الحق سرمدا ، ولله على كل قلب هجرتان فرضا لازماً : هجرة إلى الله بالتوحيد والإخلاص والتوبة والرجاء والعبودية ، وهجرة إلى رسوله بالتسليم له والتفويض والانقياد لحكمه ، وتلقى أحكام الظاهر والباطن من مشكاته ، ومن لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فلْيَحْثُ على رأسه التراب ، وليراجع الإيمان من أصله)[1] .

ومن معانى الإحسان الشائعة أن تحسن إلى أخيك بكلمة طيبة أو صلة نافعة ، أو صفح عن زلة ، وتغاضٍ عن هفوة ، أو إرشاد إلى خير ، أو تحذير من شر ، وهذا داخل فى قوله – ﷺ – : «**إن الله كتب الإحسان على كل شىء**» .

ومن الإحسان بهذا المعنى ، وقد أشرت آنفاً إليه :

العفـــو

كانت الشرائع المعروفة قبل الإسلام نوعين :

شريعة توجب مقابلة السيئة بالسيئة ، وتحتم القصاص من القاتل ، وشريعة تحبب فى العفو عن المسىء ، وتقول : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر .

---

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز . ص ٤٦٧ جـ ٢ .

ينبغى أن يحول بغض قوم بين من يعرف الحق وبين الشهادة به ، وكما لا ينبغى أن يكون لحظ النفس ، أو للقرابة أثر فى أداء الشهادة على وجهها الصحيح :

﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾ [1] .

﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ [2] .

ونلاحظ أن الآيتين تضمّنتا من الحث على العدل فى الحكم وفى الشهادة ما لا يسع من يريد النجاة أن يتجاهله .

فالنداء فى كليهما بوصف الإيمان ، وهو يستدعى الامتثال لأوامر المؤمنين به : **﴿كونوا قوامين﴾** . لم يقل : أقسطوا ، أو اعدلوا تصريحاً بالمعنى المأمور به ، ولم يقل : قوموا بالقسط ، ولا : كونوا قائمين بالقسط ، وإنما جاء بفعل الكينونة لتصير هذه صفة لازمة لهم ، وبمادة القيام لتدل على الاهتمام والتشمير لأداء هذا الواجب ثم جاء بصيغة المبالغة لتفيد التوكيد ، وشدة الحث .

وقد ذكرت الآيتان ما عساه يحول دون العدل . من حب النفس ، وعاطفة البنوة ، وصلة القرابة ، والخوف من أن تؤدى الشهادة إلى إفتقار الغنى ، أو زيادة الأعباء على الفقير ، ثم العداوة

(١) النساء ـ الآية ١٣٥ ـ والقسط : العدل . وتلووا : تميلون ألسنتكم عن شهادة الحق ، أو حكومة العدل بأن تأتوا بها على غير وجهها .
(٢) سورة المائدة ـ الآية ٨ ـ ولا يجرمنكم : لا يحملنكم . شنآن : بغض .

تقر الروح فى بدن لم تدفع عنه الأدواء)[1] .

ولكن الإسلام مع ذلك حبّب فى العفو ، ودعا إليه ، إذا لم يؤد إلى ضرر بالجماعة الإسلامية ، ففى كل آية ورد فيها إباحة رد العدوان بالعدوان ذُكر الترغيب فى العفو ، فإنَّ أخذ الحق ، وإن كان فيه مصلحة الفرد ، ومصلحة الجماعة أحياناً ربما كان أقل نفعاً من العفو .

وطبيعى أن العفو لا يكون إلّا مع القدرة على رد الاعتداء ، ومع تمكن المظلوم من الأخذ بتلابيب الظالم ، ولذلك شرع الإسلام القصاص ، وجعل لولى الدم سلطاناً ثم حسَّن له العفو .

قال تعالى : **﴿يأيُّها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص فى القتلى الحرُّ بالحرِّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عُفى له من أخيه شىء فاتباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسانٍ ذلك تخفيفٌ من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم.ولكم فى القصاص حياةٌ يا أولى الألباب لعلَّكم تتقون﴾**[2] .

كتب عليكم القصاص أى فرض ووجب فلا مفر منه إذا أصر عليه ولى الدم ، وفى هذا القصاص مصلحة عظيمة للمجتمع البشرى ؛ لأن القاتل إذا أيقن أنه سيقتل قصاصاً أطال التفكير قبل أن يقدم على جريمته ، فحفظ حياة الإنسان الذى كان معتزماً أن يقتله ، وحفظ حياته هو لأنه كان سيقتل قصاصاً ، وربما لو حدث القتل لم يقتصر أخذ الثأر على القاتل والمقتول ، بل يتعداهما إلى عشائرهما ، وقد تبقى العداوة بين القبيلين الزمن الطويل .

---

(١) أسرار البلاغة ـ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ـ طبعة هـ ريتر .

(٢) سورة البقرة الآيتان ١٧٨ ، ١٧٩ .

فإنهما لتربية المهابة ، والإشعار بالنعمة ، وهما مقتضيان لامتثال الأمر بالتقوى على الوجه الأكمل .

هذا . وضد العدل الجور والظلم ، وشهادة الزور ، وقد حذر القرآن الكريم فى آياته البينات من هذه الرذائل أبلغ التحذير .

الإحســـــان

وهى كلمة شاملة أيضاً ، تتصل بجميع الأعمال الصالحة ، فالإنسان يؤدى ما أمر به على الوجه الأكمل فيكون ممتثلاً للأمر ، فإذا بالغ فى إتقانه ، وخلّصه من كل شائبة كان محسناً .

فإنصاف الإنسان أخاه من نفسه ـ مثلاً ـ عدل ، وأنْ يبالغ فى هذا الإنصاف فيضيف إليه مكرمة إلى أخيه إحسانٌ ، وأن لا يدع على نفسه أى حق لصاحبه إحسان ، وألا يتطاول ولا يمن ولا يفخر بهذا الإنصاف إحسان ... وهكذا يقال فى كل فضيلة .

ومما يدل على ذلك أن النبى ـ ﷺ ـ سئل : ما الإحسان ؟ فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1] .

فالعبادة فى ذاتها أداء لما فرض الله ، أما أن تكون على هذه الصفة من مراقبة الله تعالى ، والشعور بأنه حاضر يُرى عند أدائها فذلك هو الإحسان .

ومن ذلك قول النبى ـ عليه الصلاة وأزكى السلام ـ : **«إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته»** [2] .

---

(١) أخرجه البخارى : كتاب الإيمان وغيره ، والسائل هو جبريل عليه السلام .

(٢) أخرجه مسلم فى الصيد ، والدارمى فى الأضاحى كما أخرجه النسائى والترمذى .

الناس فى أمن .

تلك شريعة الإسلام ، والمنصفون ممن تعمقوا فى دراسة أحوال المجتمعات الإنسانية ، ومعرفة عاداتها وتقاليدها ، وسبروا أعماق نفوسها لا يسعهم إلّا أن يعترفوا عن يقين واقتناع بأن ما ورد فى هذه الآية الكريمة هو العلاج الناجح لأدواء النفوس ، والاصلاح الحق للمجتمع الإنسانى ، والطريق الوحيد للسلام والوئام والأمن .

وقد أباح الإسلام أن تقابل أى سيئة بسيئة مثلها ، أى بجزاء عليها ، قال تعالى فى وصف المؤمنين : **﴿والَّذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون.وجزاء سيئةٍ سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾**(١) .

فمن صفات المؤمنين الكاملى الإيمان ألا يستكينوا للبغى ، أو يخضعوا للضيم ، أو يرضوا بالذل ، بل ينتصرون لأنفسهم ، ولأمتهم ممن بغى عليهم .

وقد أباح لهم القرآن الكريم أن يقابلوا السيئة بجزائها ، فالله سبحانه لا يحب الظلم ، ولا يرضى به لعباده المؤمنين الذين أثبت لهم العزة فى قوله سبحانه : **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾**(٢) .

ولكن فى الآية الكريمة ما يحبب فى العفو ، ويرغب فيه ، ويدعو إليه :

أولاً : تسمية جزاء السيئة سيئة ، وقد علل المفسرون ذلك ببعض العلل ، ولكن فى ذلك إشارة إلى أن الجزاء مع أنه من حق من أسىء إليه أشبه بأن يكون سيئة مبتدأة .

---

(١) سورة الشورى ـ الآية ٣٩ .

(٢) سورة (المنافقون) ـ الآية ٨ .

ولما كان الإسلام دين الفطرة ، وكانت غريزة حب الانتقام والدفاع عن النفس متأصلة فى الطبيعة البشرية ، ولما كانت مصلحة الفرد والجماعة فى أن يهيأ لهذه الغريزة مجالها ، ولا سيما عندما يتسلط على الأمة جبار ، أو يعلو فيها صوت المفسدين فى الأرض جاء الإسلام بإعطاء المظلوم حق الانتصاف من الظالم ، فأوجب على جماعة المسلمين أن يقوم فيهم من يأخذ لولى المقترل بحقه من القاتل ، وأباح للمعتدى عليه أن يأخذ بحقه من المعتدى .

قال إمام البلاغيين الشيخ عبدالقاهر الجرجانى ، وهو يعلق على بيت المتنبى :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يـــراق على جـوانبه الدم

(معنى معقول ، لم يزل العقلاء يقضون بصحته ، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسنته ، وبه جاءت أوامر الله سبحانه ، وعليه جرت الأحكام الشرعية ، والسنن النبوية ، وبه استقام لأهل الدين دينهم ، وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويضيرهم ، إذ كان موضوع الجبلة على أن لا تخلو الدنيا من الطغاة الماردين ، والغواة المعاندين ، الذين لا يعون الحكمة فتردعهم ، ولا يتصورون الرشد فيكفهم النصحُ ويمنعهم ، ولا يحسون بنقائص الغيّ والضلال ، وما فى الجور والظلم من الضَّعة والخبال ، فيجدوا لذلك مسٌّ ألم يحبسهم على الأمر ، ويقف بهم عند الزجر ، بل كانوا كالبهائم والسباع لا يوجعهم إلّا ما يخرق الأبشار من حد الحديد ، وسطو البأس الشديد ، فلو لم تطبع لأمثالهم السيوف ، ولم تطلق فيهم الحتوف ، لما استقام دين ولا دنيا ، ولا نال أهل الشرف مانالوه من الرتبة العليا ، فلا يطيب الشرب من منهل لم تنف عنه الأقذاء ، ولا

يظلمون النّاس ويبغون فى الأرض بغير الحقّ أولئك لهم عذاب أليمٌ . ولمن صبر وغفر إنَّ ذلك لمن عزم الأمور﴾ .[1]

فلا جناح على من ينتصر لنفسه من ظالمه ، ولاتثريب على من يأخذ لنفسه أو لجماعته حقها من الباغى عليها ، بل تفيد الآيات بمجموعها أن على المسلمين أن يقاتلوا أعداءهم إذا بغوا عليهم ، وأن يقابلوا قوة الظالم بقوتهم حتى يردوه عن ظلمه ، وحتى يقلموا أظفاره فلا يفكر فى ظلمهم بعد ذلك .

ولكنا نلاحظ أن الآيات عادت فحببت فى العفو ، وذكرت أن الصبر والمغفرة من عزم الأمور .

والآيات القرآنية فى هذا المعنى كثيرة ، وخلاصة ما يدل عليه مجموعها أن ردّ الظلم حق لكل مسلم ، وأن قتال المقاتل مشروع ، بل هو من صفات المؤمنين الصادقين ، وأنه ليس من حق الفرد أن يتهاون فى حق الجماعة المسلمة ، بل عليه أن يرد عنها ، وليس له أن يعفو عمن يسىء إليها .

فإذا كان الأمر يتعلق بالفرد فى خاصة نفسه ، وكان على أن ينتصف قادراً ، فإن من كرم الأخلاق ـ حينئذ ـ أن يعفو ويصفح ، إذا كان العفو والصفح يردَّانِ الظالم عن غيه ، وإنما يصلح العفو أصحاب النفوس الكريمة ، وذوى الحياء والفضل . وكما قال المتنبى :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

---

(١) سورة الشورى الآيات ٤١ ـ ٤٣ .

هذا . وقد أخذ للمقتول حقه ، فلو أن الإسلام لم يفرض القصاص ، وأشفق على القاتل ـ كما يهرف بذلك بعض قصار النظر ـ لكانت العداوة أشد ، ونشبت نيران الحقد والبغضاء بين الفريقين ، ولظل لهيبها يأكل الأخضر واليابس ، ويورث الأبناء والأحفاد عداوات الآباء والأجداد ... والأمثلة عندنا لا تكاد تحصى حين تعجز يد القضاء عن الوصول إلى القاتل .

فإذا طابت نفس ولى الدم ـ واحداً أو أكثر ـ بالتجاوز عن القصاص ، ورضى عن سماحة نفس بأخذ الدية ، أو بالعفو عن القاتل فإن فى الآية الكريمة ما يبارك هذا الموقف ، ويرغب فيه ، وفى الآية ما يلزم من يعفو أن يلتزم هذا العفو بالمعروف ويلزم المعفو عنه أن يؤدى الدية دون تأخير أو نقصان .

ومن الدقائق فى الآية أنها عبرت عن ولى الدم بأنه أخ القاتل : **﴿فمن عفى له من أخيه شيء﴾** . وهذا مما يعطف القلوب بعضها على بعض ، فهو أخ وإن ارتكب أفدح الجرائم ، ثم التعبير بكلمة (شيء) فيه لطيفة أخرى نبه إليها العلماء ، وذلك أن أى قدر من العفو حتى لو كان من واحد ، وأولياء الدم جماعة ، يمنع القصاص .

وفى الآية لطيفة ثالثة فى قوله سبحانه : **﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾** وقد يتبادر إلى الأذهان أن التخفيف والرحمة للقاتل فقط ، ولكن المتأمل فى أحوال المجتمعات يدرك أن التخفيف والرحمة للقاتل ولأولياء القتيل ، ولآخرين ، ذلك أن ولى الدم إذا أصر على القصاص بقيت العداوة ، وتشتد وتقوى كما لو لم يمكن من القصاص ، أما حين يرضى بأخذ الدية ، أو تسمو نفسه فيصفو ، فإن العداوة تبقى إلى حين ، ثم نصفو النفوس ، ويعيش

كما خاب قارون ، وخسيء ، وخسف به وبداره الأرض حين غفل عن الحقيقة الكبرى ، وقيل له ـ وقد أعطاه الله من الكنوز ما يفوت الحصر ـ قيل له ـ كما حكى القرآن الكريم : **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك﴾**[1] فقد كان عليه أن يشكر نعمة الله عليه ، وأن يعترف موقناً بأن هذا المال الذى فى يده آتاه الله إياه ، وأن الله ـ سبحانه ـ أحسن إليه بإعطائه هذا المال الكثير ، ولكنه تجبّر وتعاظم ، وعظم عليه أن يعترف لربه بالإنعام عليه ، وأن يتبع ذلك بالإنفاق منه على الفقراء ابتغاء مرضاة الله ، وابتغاء الدار الآخرة ، فكان موقفه ـ كما حكى القرآن ـ : **﴿قال إنَّما أوتيته على علم عندى﴾** ، وكانت نهايته كما جاء فى القرآن الكريم : **﴿فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾** .

والإحسان إلى ذوى القربى أحد أنواع هذا الإحسان ، ولكن القرآن خصهم بالذكر لبيان أنهم أحق بالإحسان من غيرهم ؛ فإن الإحسان إليهم صلة الرحم ، وهى مما وصّى القرآن ، وشدد فى الوصية به .

ومما يؤكد أمر العناية بذوى القربى أن الله سبحانه جعله تالياً للأمر بعبادته وللأمر بالإحسان إلى الوالدين ، قال تعالى : **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى﴾** [2] .

وكذلك سماه الله حقا يجب الوفاء به وأداؤه : **﴿وآت ذا القربى**

---

(١) وردت قصة قارون فى آخر سورة القصص الآية ٧٦ ـــ ٨٢

(٢) سورة النساء ـــ من الآية ٣٦ .

ثانياً : تقييد الجزاء بالمثلية ، واعتبار مازاد على المثلية ظلماً إذا لاحظنا أنه يمكن أن يدخل الزائد على المثل فى قوله سبحانه : **﴿إنه لا يحب الظالمين﴾** .

ثالثاً : قوله سبحانه : **﴿فمن عفا وأصلح﴾** حيث الإشارة إلى ثمرة العفو ، وهى الصلح بين المسىء والمساء إليه .

رابعاً : قوله تعالى : **﴿فأجره على الله﴾** حيث ذكر الأجر مبهما ، وهذا يدل على أنه أجر عظيم ، وحيث جعله الله عزّ وجلّ (عليه) ، والحرف (على) يفيد فى لغة البشر الالتزام ، ولكن معناه فى جانب الله تعالى أنه وعد لا يتخلف .

خامساً : نفى الحب هنا ـ والظلم يشمل من يبتدىء بالسيئة ، ومن يزيد فى جزائها عن المثل ـ من أقسى ما يواجه به المسلم الحق ، وهل هناك أقسى من أن يشعر المسلم بأن الله خالقه ورازقه لا يحبه ؟ .

هذا كله إذا كان العفو عن قدرة لأنه بغير القدرة لا يسمى عفواً ، وإذا كانت له نتائج طيبة فى الاصلاح بين الناس ، وفى القضاء على الأحقاد والإحن ، أما إذا كان المسىء لئيماً لا يزيده العفو إلّا تمادياً فى الإساءة ، وإمعاناً فى اللؤم ، واستمراراً فى الغى والظلم ، وعلى حد قوله المتنبى : (وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا) فإن العفو ـ حينئذ ـ يكون مضراً بالجماعة الإسلامية ، لأنه يمكن لسفهائهم النيل من أشرافهم ، ولذوى الطيش منهم الإضرار بجماعتهم ، ولذلك عادت الآيات القرآنية فى هذا الموضع إلى تذكير المؤمنين بأن لهم أن ينتصروا لأنفسهم إذا استمر السفهاء يظلمونهم ، يقول تعالى ـ بعد الآيتين السابقتين ـ : **﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنّما السبيل على الذين**

مال الغنى ، وللقريب حقاً على قريبه ، وقرر رسوله الكريم أنه ما آمن بالله من بات شبعان وجاره جائع .

وهل يمكن أن يسود الحب بين قوم تتحكم فى أغنيائهم الأثرة ، ويختفى فى ربوعهم الإيثار ؟ .

وإذا فقد الإنسان حب أقرب الناس إليه ، وحب عشيرته ، وحب من يخالطهم من الناس كيف يشعر بلذة الحياة ؟

لا أظن ذلك إلّا إذا كان المال وحده يهب السعادة ، وراحة النفس لمالكيه .

فالإسلام كما هو دين العدالة الاجتماعية ، ودين الخير والبر والتعاون عليهما ، هو ـ أيضاً ـ الدين الذى يحقق السعادة لمن يلتزمون تعاليمه . هذه السعادة التى أخفق الفلاسفة والشعراء فى البحث عنها ، وفى هداية البشرية إليها .

كما أن الكلمات الثلاث : العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى تضمنت كل أصول الفضائل حتى يمكننا أن نرجع إليها كل مكارم الأخلاق ، كذلك الكلمات الثلاث : الفحشاء والمنكر والبغى تضمنت كل أصول الرذائل ، ويمكن أن نرجع إليها كل نقيصة فردية أو جماعية ، وكل خلق سيىء عاد بالشقاء والوبال على الإنسان فى خاصة نفسه ، وعلى الدول فى معالجتها لشئونها الداخلية ، وفى علاقاتها مع غيرها من الدول .

وهذا سرّ من أسرار بلاغة القرآن الذى يستعمل الكلمة فتعجز العقول وتبهر الأفهام ، ويمتدّ أفقها حتى يخيل للرائى أنه بعيد بعيد ، يقف أمامه مبهوراً ، ويحاول أن يمدّ يده كى يدركه ... ولكن ... هيهات ... هيهات .

ولنأخذ فى بيان هذه الكلمات الثلاث ، مع غاية الإيجاز :

إيتــاء ذى القُربــى

من الإحسان أن تبذل معروفك لكل من يستحقه ، وأن تنفق المال فى وجوهه المشروعة .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على الإنفاق فى سبيل الله ، وبذل المال للفقراء والمساكين ، وتحذر من جمع المال وخزنه ، ومنع حقوق الفقراء فيه .

ولعل أساس ذلك هو تنبيه ذوى الثراء والغنى إلى أن هذا المال الذى فى أيديهم ليس ملكاً خالصاً لهم يتصرفون فيه كما يشاءون ، أو يضنون به على ذوى الحاجة كما تسول لهم نفوسهم ، بل المال الذى فى أيديهم هو مال الله ، يسر لهم طريق الحصول عليه ، وأعطاهم التفكير والقدرة ، وغرس فى نفوسهم حب السعى لتحصيله فهو بفضل الله وتيسيره ، وما هم إلّا خلفاء فيه ، وعلى الخليفة أن يتصرف على الوجه الذى يرتضيه الذى استخلفه على المال : **﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا ممَّا جعلكم مستخلفين فيه﴾**[1] .

وقد كان الأعرابى صادقاً مع نفسه ، ومع واقع الحياة ، ومع عقيدته الإسلامية حين سئل ـ وهو يرعى غنماً ـ لمن هذا المال ؟ فقال : لله فى يدى .

---

(۱) سورة الحديد ـ الآية ۷ .

فيمكن أن نقول : أن المراد بالفحشاء فى هذه الآية الزنا ، والبخل الشديد ، وقد تحدثت فيما سبق عن كبيرة الزنا ، وما يترتب عليها من أضرار تتصل بالصحة وبالعرض ، وباختلاط الأنساب .

والحق أن الزنا إذا شاع فى بيئة كان من أقوى المعاول فى هدم كيانها الأخلاق ، فتكثر الأمراض ، وتختلط الأنساب ، وتختل القيم ، والزانية محتقرة حتى عند الذى فجر بها ، وهى فى نظر المجتمع ـ أى مجتمع كان ـ مهينة مبتذلة ، وإن تودد إليها المتوددون ، وقل ما يقبل رجل ـ وإن كان فاجراً ـ أن يتزوج من زانية ، أو يربط حياته بها .

ولقد كان العرب فى جاهليتهم يأنفون من هذه الفاحشة فندرت بين الحرائر وشاعت بين الإماء اللائى كن يرفعن على بيوتهن الرايات للاهتداء بها إليهن ، ولذلك قالت هند بنت أبى سفيان لما عاهد النبى ـ ﷺ ـ النساء ، وكان فى عهده ـ كما جاء فى الآية الكريمة ـ ألا يزنين ـ قالت هند ـ وهل تزنى الحرة ؟!

ومن أمثال العرب المشهورة : تجوع الحرة ولا تأكل بثديها ـ أى لا تكون الحرة مرضعة ، فجدير بها ألا تزنى .

أما البخل ـ وبخاصة البخل الذى يصل إلى درجة الشح ـ فهو داء من أدواء المجتمعات ، وقد ألمحت إلى أضراره فى الكلمة السابقة التى شرحت فيها معنى كلمة الإحسان الواردة فى هذه الآية .

وأضيف إلى ذلك أن البخل سوء ظن بالله ، ونتيجة بغض المجتمع ، وحب زائد للمال ، والبخيل يحرم نفسه ، وأهله قبل أن يحرم الآخرين ، ولذلك يكون الحقد عليه من أولاده وزوجه وأهله بالغاً أشده ، ويوسعونه احتقاراً وازدراء ، فكيف ـ إذاً ـ سنتصور مجتمعاً سليماً سعيداً يسود بين أفراده الحقد والاحتقار .

حقَّه﴾ [1] . **﴿فآت ذا القربى حقَّه والمسكين وابن السبيل ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه الله وأولئك هُمُ المفلحون﴾** [2] .

فهو الحق إذاً ، لا سبيل إلى إنكاره ، ولا مناص من أدائه ، ولا خير من التقصير فيه ، بل هو الخير ، ومعه الفوز والفلاح .

وكما أنه سبيل الفوز فى الآخرة ، هو ـ أيضاً ـ سبيل السعادة فى الدنيا ، فبأداء هذه الحقوق يتوادُّ الناس ويتراحمون ، ويسود بينهم الوفاق والوئام ، وتصفو نفوسهم من الحقد والحسد .

وإذا كان همّ الإنسان أن يعيش لنفسه ، فلابد أنه سيفقد أهم أسباب السعادة فى هذه الحياة ، فشعور الإنسان بمودة الآخرين ـ وبخاصة ذوى قرابته ـ والتفافهم حوله عند حاجته إليهم ، وتعاطفهم معه حين يمسّه الضر ، ومشاركتهم له فى مسراته وأفراحه . كل هذه ألوان من السعادة النفسية يقدرها من صفت وجداناتهم ، ورقت عواطفهم ، وسمت مشاعرهم .

ولا يشك عاقل فى أن ما أصاب الإنسانية من قلق وهموم ، ومن أضطراب فى الحياة ، وكراهة فى العيش يرجع ـ فيما يرجع ـ إلى تفكك الروابط بين الناس وإلى تقطع الوشائج بين ذوى القرابات ، وإلى ما يترتب على ذلك من أحقاد وعداوات .

ولذلك كان الإسلام مرشد الإنسان إلى أهم وسائل السعادة حين شرع التكافل الاجتماعى ، وجعل ـ بذلك ـ للفقير نصيباً فى

---

(١) الاسراء ـ من الآية ٢٦ .

(٢) الروم ـ الآية ٣٨ .

يقول محمد بن دانيال المتوفى سنة ٦٠٨هـ :

يُعنى البخيـل بجمـع المال مدَّته
وللحـــوادث والأيــام ما يـدع
كدودة القــزِّ ما تبنيــه يهدمهــا
وغيـــرها بالـذى يبنيــه ينتفــع

ويقول أمير الشعراء أحمد شوقى :

ولم أر مثل جمــــع المال داءً
ولا مثل البخيــــل به مصــاباً
فلا تقتــــلك شـــهوته وزنـها
كمــا تزن الطعــام أو الشـــرابا

المنكـــــر

وهو كل ما تنكره العقول السليمة ، ويدخل فيه القتل والسرقة والكذب والخيانة ، وخلف الوعد ، ونقض العهد ، والغدر والبذاء والمكر والخديعة وكثير غيرها .

وكلها رذائل اجتماعية ، تفسد حياة الناس الخاصة والعامة ، وتُحِلّ المجتمع فى مكان فاسد الهواء ، كدِر الماء ، مرّ الثمرات ، إن عاش فيه الناس يوماً ، فلا يستطيعون أن يعيشوا فيه أبد الدهر ..

وحسبك فساداً فى المجتمع ألا يثق أحد بأحد ، وألا يأمن إنسان لا على نفسه ، ولا على ماله ، ولا على عرضه ، ولا على دينه .

بل إن رذيلة واحدة من هذه الرذائل كفيلة ـ إذا فشت فى المجتمع ـ أن تحيل نهاره ليلاً ، وصفوه كدراً ، وسعادته شقاءً .

الفصل الثاني

الفحشـــــاء

الفحش كل ما اشتد قبحه من الأفعال والأقوال ، وقد فسّر ما جاء من هذه المادة فى القرآن الكريم بالزنا وما يتسبب به إليه ، بل وصف به الزنا صراحة فى قوله تعالى : **﴿ولا تقربوا الزّنا إنَّه كان فاحشةً وساء سبيلا﴾**(١) وفسر بالبخل الشديد فى قوله تعالى : **﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾**(٢) .

والفاحش عند العرب البخيل ، ومما جاء فيه ذلك قول طرفة بن العبد :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى
عقيـلة مال الفـاحش المتشـدّد

ويعتام : يقصد .

وروى عن عطاء ـ رحمه الله ـ أن الفاحش اسم لكل فعل قبيح ، فيدخل فيه جميع المعاصى والكبائر .

وإذا انفرد لفظ الفاحشة أو الفحشاء أمكن تفسيره بهذا الإطلاق ما لم تكن فى السياق قرينة تصرفه إلى معنى معين ، أو ترجح هذا المعنى ، أما إذا اجتمع مع غيره ـ كما فى هذه الآية التى نتحدث عنها ـ فيحسن تخصيصه بنوع معين من الذنوب .

---

(١) سورة الاسراء ـ الآية ٣٢ .
(٢) سورة البقرة ـ الآية ٢٦٨ .

على الخلق ، بل ربما على النفس أيضاً فقد يوهمها أنه ذو بطش وقوة ، وقد يوهمها أنه متفرد بمزايا حُرِمها الآخرون .

ولا شك أنه من الرذائل التى تستقبحها العقول ، وتنكرها الفطر ، بل ربما كان من أخطرها وأقبحها ، فأثر البغى فيما يقوم بين الدول من حروب تأكل الأخضر واليابس معروف غير مجهول .

وأثره فى اضطراب الحياة ، وزعزعة الأمن ، والتخلف الاقتصادى والعلمى والاجتماعى فى الشعوب التى تمنى بدول باغية اعتدت على استقلالها ، واستعمرت أرضها ، وساستها بالحديد والنار . أقول : أثره فى كل ذلك لا ينكره إلّا مدخول فى عقله ، مصاب فى بصيرته ، متهم فى إنسانيته .

ولقد شاهدنا ـ ولازلنا نشاهد ـ ما يفعله البغى بالكرامة الإنسانية ، وبالسلام العالمى ، وبالشعوب التى لا تملك القوة التى ترد الباغى .

ومن عجب أن تدعى بعض الشعوب ، وحكامها أنها متقدمة ، ذات حضارة ورقىّ ، ثم تبارك الطغيان ، وتؤيد البغى ، وتعين على الإفساد فى الأرض .

والمال والقوة ، والتقدم العلمى ليست مقاييس الرقى والتقدم ، وإنما المقياس الحقيقى أن تكون مع كل هذه ضمائر تكره الظلم ، وعواطف كريمة نحو بنى الإنسان ، تستنكر البغى ، ثم أعمال جادة حازمة ترفع يد الظالم الباغى ، وترد لذوى الحقوق حقوقهم .

ومما يشيع السكينة فى نفوس المؤمنين ، ويردّ الطمأنينة إلى قلوب المظلومين أن القرآن الكريم أوعد ووعيده الحق ـ أن عاقبة البغى وخيمة ، وأنها ستعود على الباغى ، يقول تعالى : ﴿يأيها

البخيل يحقد على المجتمع فيمسك يده عن المعاونة فى الخير ، ويحجم عن تفريج كُرب المكروبين ، والمجتمع يحقد عليه لأنه لم يعدل بالمال شيئاً ، لا صلة القرابة ، ولا الأخوة فى الدين ، ولا الأخوة فى الإنسانية .

وقد روى أن رجلاً وفد على معاوية بن أبى سفيان الخليفة الأموى ، وقال له : أعطنى بالرحم التى بينى وبينك ، فقال له معاوية : وأى رحم بيننا ؟ قال الرجل : رحِم آدم ، فقال معاوية : رحم مجفوّة ، والله لأكونن أول من وصلها .

هكذا كان يفهم صحابة رسول الله أن الإنسانية رحم بين أبنائها ، وأن اجتماع الرجل مع الرجل فى البنوة لآدم كاجتماعه معه فى البنوة لأبيه الأدنى .

أما البخيل فلا يعترف برحم ، ولا يعرف له حرمة ، بل لا يعترف بحق نفسه عليه ، فتراه أشعث أغبر ، مكتئب النفس ، زرىّ الهيئة ، وهو فى الآخرة من الخاسرين وصدق الله العظيم : **﴿ومن يوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾**[1] .

ويبين الرسول ـ ﷺ ـ أثر الشح فى تقويض بنيان الجماعة الإنسانية ، وإشاعة الفساد فيها ، فيقول : **(اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)**[2] .

قلت إن أول مَن يضر البخيل نفسه ، وقد أكثر الشعراء من صياغة هذا المعنى .

---

(١) سورة الحشر ـ الآية ٩ .
(٢) أخرجه مسلم .

الفصل الثالث

نماذج إنسانية
يشير إليها القرآن الكريم

أكثر الآيات التي ورد فيها ذكر الإنسان كان نزولها بسبب خاص ، وفي شخص معين ، وهذا الشخص هو في الحقيقة نموذج إنساني ، تتكرر سماته التي ذكرتها الآية في كثيرين .

فمثلاً ذكر المفسرون أن قوله تعالى : ﴿**كلا إنَّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾[1] نزل في أبي جهل ، فهذا الطاغية بسبب الغنى ليس أبا جهل وحده ، ولكن أمثاله كثيرون في كل زمان ، وفي كل مكان ، فهو نموذج إنساني لهذا الصنف من الناس الذين يطغيهم الغنى ، ويبطرهم الثراء .

وقوله تعالى : ﴿**وإذا أنعمنا على الإنسانِ أعرض ونأى بجانبه**﴾[2] نزل في عيَّاش بن أبي ربيعة ، فهو أيضاً نموذج لكثيرين غيره ، ينسون الله حين تقبل عليهم الدنيا ، فإذا مسّهم الضُّر يئسوا وقنطوا ، وهذا هو تمام الآية : ﴿**وإذا مسَّهُ الشرُّ كان يئوساً**﴾ .

وقوله تعالى : ﴿**إن الإنسان خلق هلوعاً ... الآيات**﴾ نزل في الأخنس بن شريق ، وقد قدمت القول في هذه الآيات .

وهكذا . وقد يشار إلى (النموذج) في القرآن الكريم بعبارة أخرى

---

(١) سورة العلق ـ الآيتان ٦ ، ٧ .
(٢) سورة الاسراء ـ الآية ٨٣ .

ولنأخذ ـ مثلاً ـ رذيلة (الكذب) ، ثم نتصور أن معاملات الأفراد بعضهم مع بعض ، وعلاقات الدول كل منها بالأخرى يحكمها الكذب ، ولا بد أن يتبعه الغدر والمكر والخيانة ونقض العهد وما تخيلت من النقائص لأنه لا يحمل على الكذب إلّا قصد الإضرار بالآخرين ، لا سيما إذا كان فى معاملات الدول بعضها مع بعض ـ فسنرى حياة أشبه بحياة الوحوش فى الغاب لا يحكمها إلّا قانونها الخاص ، قانون البطش والاستبداد والاستعباد ، فلا يُصرِّفها عقل ، ولا توجهها عاطفة ، ولا يحد من ضراوتها خلق قويم .

البغى

فى القاموس المحيط : (وبغى علينا : علا وظلم ، وعدل عن الحق ، واستطال وكذب ، وفى مشيته اختال وأسرع ، والبغى الكثير من البطر) .

وقد قصره صاحب القاموس نفسه فى تفسير هذه الآية على الظلم[(١)] ، ولعله فعل ذلك لمجيئه مع الفحشاء والمنكر .

ولكن ليس من مجافاة الحق أن نفسره فى هذه الآية الكريمة بكل المعانى التى ذكرها فى القاموس ، فهو من الفحشاء ، وهو من المنكر ، ولكن القرآن أفرده بالذكر ليبين مدى شناعته ، وسوء مغبته ، وهو استطالة على الناس ، وكثيراً ما يكون صادراً عن قوة غاشمة أو عن سلطان جائر ، أو عن عصبية ذميمة ، وهو كذب

---

(١) بصائر ذوى التمييز جـ ٢ ص ٢٦٢ .

غير أن الرجل شديد الحرص على أن يصل إلى هدفه ، ويحقق أمنيته فيعاود الرسول بالسؤال والالحاح فيه ، ويقول : (والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالاً لأعطيّن كل ذى حق حقه) ، فيستجيب له الرسول ، ويدعو له بما أراد : (اللهم ارزق ثعلبة مالاً) .

واستجاب الله ــ سبحانه ــ دعوة رسوله ، ورزق الرجل مالاً ، فاتخذ غنماً ، فنمت نمواً عظيماً حتى ضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ، ونزل وادياً من أوديتها ، وجعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ، ويترك ما سواهما ، ثم نمت غنمه وكثرت ، فترك الصلاة إلّا الجمعة ، ومازالت تنمو وتكثر حتى ترك الجمعة أيضاً .

وقد أُخبر رسول الله ــ ﷺ ــ بخبره ، وانتهى إليه ما صارت إليه حاله ، فقال : (يا ويح ثعلبة . يا ويح ثعلبة . يا ويح ثعلبة) ثلاث مرات .

ولما نزلت آية الزكاة بعث رسول الله ــ ﷺ ــ رجلين من المسلمين ، وكتب لهما كتاباً يبين فيه كيف يأخذان الزكاة ، فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه زكاة ماله ، وأقرآه كتاب رسول الله ، فقال : ما هذه إلاّ جزية ، ما هذه إلّا أخت جزية ، ما أدرى ما هذا ؟ وطلب إليهما العودة إليه عندما يفرغان من أخذ زكاة بعض المسلمين ، فلما رجعا إليه قال : أرونى كتابكما ، فقرأه ، فقال : ما هى إلّا جزية ، انطلقا حتى أرى رأيى ، فلما أتيا النبى ــ ﷺ ــ قال ــ قبل أن يكلمهما : (يا ويح ثعلبة) ، فأخبراه بالذى كان من ثعلبة ، فأنزل الله ــ عزّ وجلّ :

﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصَّدَّقنَّ ولنكوننَّ من الصالحين . فلمَّا آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون .

النَّاسُ إنما بغيكم على أنفسكم﴾[1] .

أى وبال البغى ، وسوء عاقبته ، وما فيه من شر وظلم يلحق بالباغين ، وبمن يعاونهم على بغيهم .

وقد جاء فى القرآن الكريم الوعيد بعقوبة دنيوية على ثلاث رذائل ، هى البغى كما تفيده هذه الآية الأخيرة ، ونقض العهد ونكثه كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فمن نكث فإنَّما ينكث على نفسه﴾[2] ، والمكر السيىء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ولا يحيق المكر السَّيىء إلّا بأهله﴾[3] .

ونحن موقنون أن وعيد الله سبحانه حق ، وأنه لا بد واقع ، ولا يَغُرَّنَّ قوماً أن وعيد الله قد يبطىء ، فإن الله ـ عزّ وجلّ ـ يمهل ولا يهمل ، وأنه سبحانه يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

---

(١) سورة يونس ـ الآية ٢٣ .
(٢) سورة الفتح ـ الآية ١٠ .
(٣) سورة فاطر ـ الآية ٤٣ .

وتارة تجيء آياتها بأسلوب التبعيض : **﴿ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنّى ألا فى الفتنة سقطوا وإنَّ جهنم لمحيطة بالكافرين﴾** [1] .

﴿ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أُذُنٌ قُل أُذُنُ خيرٍ لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذابٌ أليمٌ﴾ [2] .

﴿ومنهم من يلمزك فى الصَّدقاتِ فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ [3] .

ومن هذه الطائفة هذه الآيات الكريمة التى نزلت فى شأن ثعلبة ابن حاطب [4] ، وقد وصفت الآيات هذا المنافق بجملةٍ من أسوأ الصفات ، وأشدها شناعة ، وأقبحها مظهراً ومخبراً ، وآلمها عاقبة .

فهو قد عاهد الله تعالى وتقدست أسماؤه ، وأقسم على هذا العهد أن يتصدق ، وأن يكون من الصالحين لو آتاه الله من فضله ، ثم خاس بهذا العهد ، وأخلف الله ما وعده ، وهو قد تولى وأعرض عن تكاليف الشرع وأوامره ، ولم يجتنب نواهيه : كذَب وبخل وأبى أن يؤدى حقوق الله ، وحقوق عباده ، وليس فى صفات المنافقين أسوأ من هذه الصفات ، والرسول ـ ﷺ يقول : **(ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان)** .

وقد كذب ثعلبة فيما عاهد عليه ، وأخلف وما وفى بعهد الله ،

---

(١) الآية ٤٩ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٦١ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٥٨ من سورة التوبة .

(٤) ذكر المفسرون بعض الأسباب الأخرى للنزول ، ولكن أكثرهم ابتدأ بهذا السبب ، وبعضهم اقتصر عليه كما فعل النيسابورى فى (تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان) ، وكما فعل الجلال السيوطى وابن كثير.

مثل : (ومن الناس) ، وأولئك كذلك هم نماذج فى غيرهم تلك الصفات التى ذكرها القرآن .

وسأقتصر على نموذج واحد ، أجعله مثلاً لما يمكن أن تصور به النماذج القرآنية ، وأن توضح بكل معالمها وسماتها .

يا .. ويح ثعلبة !!

كان قريباً من رسول الله - ﷺ - يراوحه ويغاديه ، ويحضر معه الصلوات ، ويستمع إلى قوله الكريم ، وفى نفسه حاجة ملحة يريد أن ينالها بدعاء الرسول .

قال يوماً للرسول - عليه الصلاة والسلام : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً ، فقال عليه الصلاة والسلام : (**ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه**)[1] .

ولكن الحاجة تلح على ثعلبة ، والرغبة ، فى المال تملأ جوانحه ، وتقلق باله ، فيسأل الرسول مرة أخرى أن يدعو الله له ليرزقه مالاً ، فيكبح الرسول من جماحه ، ويرده إلى موضع الأسوة والقدوة فى ذاته ﷺ ، ويقول له : (**أما ترضى أن تكون مثل نبى الله ، فوالذى نفسى بيده لو شئت أن تسير الجبال معى ذهباً وفضة لسارت**) .

(١) ورد فى القصة حديث رواه بن جرير الطبرى عن رواته عن أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب ، وذكره القرطبى من طريق آخر عن أبى أمامة أيضاً .
وقال السيوطى فى أسباب النزول : (أخرج الطبرانى وابن مردويه وابن أبى حاتم والبيهق فى الدلائل بسند ضعيف أن ثعلبة ... الخ . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن طريق العوفى عن ابن عباس نحوه) آهـ .

وأن تعى جيداً صفات الألوهية .

وظاهر هذه الآيات أن نقص العهد ، وخلف الوعد يورثان النفاق ، فعلى المسلم أن يبالغ فى الاحتراز عنهما ، فإذا عاهد الله فى أمر فليجتهد فى الوفاء به ، وقد ذهب الحسن البصرى – رحمه الله – إلى أن ذلك يوجب النفاق لا محالة .

وقد روى عن النبى – ﷺ : (**اضمنوا لى ستاً أضمن لكم الجنة : إذا حدثتم فلا تكذبوا ، وإذا وعدتم فلا تخلفوا ، وإذا ائتمنتم فلا تخونوا ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم**)[1] .

وثعلبة رجل شقى ، اقترن اسمه فى التاريخ الإسلامى بهذه النقائص القواتل ، وهو رجل منافق ، حكم الله عليه بالنفاق الثابت الدائم إلى يوم أن يلقى مصيره المحتوم ، وقد مات الرجل فى عهد عثمان بن عفان – رضى الله عنه – مات على النفاق ، فكان خبر السماء معجزاً ، لأنه أخبر عن غيب كان حقيقة فى حياة الرسول ، وظل حقيقة فى نفس هذا المنافق حتى مات .

وكم من الناس الذين عاشوا قبل أن يضىء نور الإسلام آفاق الدنيا ، كم منهم كان حقيقاً باسم ثعلبة ، على ما عرفنا من رذائله . الحق أن هذا صنف من الناس يوجد فى كل زمان ، وفى كل مكان ، وما ثعلبة ورفاقه إلّا نماذج من هذا الصنف .

يقسو العيش على رجل من الناس ، وتضيق عليه مذاهب الحياة ، ويلقى من مكاره الحاجة ومتاعبها ما يجعله يتوجه إلى ربه ، يتوسل إليه بالعمل الصالح أن يبسط له فى الرزق ، ويوسع عليه فى

---

(١) رواه أحمد بن حنبل فى مسنده .

فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أنَّ الله يعلم سِرَّهم ونجواهم وأنَّ الله علَّام الغيوب﴾ [1] .

هذه الآيات الكريمة من سورة (التوبة) ، وهى من أواخر السور التى نزلت على رسول الله - ﷺ - وتسمَّى سورة (براءة) ؛ لأن الله سبحانه بدأها ببراءته ، وببراءة رسوله من المشركين .

وكان ابن عباس - رضى الله عنهما - يسميها : (الفاضحة) ؛ لأنها فضحت المنافقين ، وأظهرت ماكانوا يخفون فى أنفسهم من ألوان النفاق ، قال ابن عباس عن هذه السورة : مازالت تنزل فيهم ، وتنال منهم حتى خشينا ألا تدع أحداً .

وقد صدق ابن عباس ، فقد كشفت السورة عن كثير من جهالات المنافقين ، تارة تجىء آياتها بأسلوب العموم : **﴿ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عدةً ولكن كره انبعاثهم فثبَّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾** [2] .

﴿يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم﴾ [3] .

﴿يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمُّوا بما لم ينالوا وما نقموا إلَّا أنْ أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ [4] .

---

(١) الآيات ٧٥ ــ ٧٨ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٤٦ من سورة التوبة .

(٣) من الآية ٦٤ من سورة التوبة .

(٤) من الآية ٧٤ من سورة التوبة .

وقد تعدل الدنيا فيمسى غنيُّها
فقيراً ويغنى بعد بؤس فقيرها

على أن هؤلاء قد يفيقون ، أو يفيق بعضهم من الغفلات حين تنزل بهم الكوارث فتأتى على الأخضر واليابس مما جمعوا ، أو حين يكشف الله سترهم ، ويجلى للناس حقائقهم ، كما فعل ثعلبة حين ضاقت به الأرض ، وضاقت به نفسه ، فلجأ إلى رسول الله ، ثم إلى صحابته ، يلتمس الإقالة من العثرة ، وما أشك فى أنه لم يكن صادقاً فى هذه التوبة ، والا لقبلها الله ، وقبلها رسوله ، فليحذر الذين يلجأون إلى الله فى الشدائد بظواهر أعمالهم وأقوالهم ، ولا تزال نفوسهم على ما كانت عليه من النفاق والشقاق ، ورذائل الأخلاق .

نسأل الله تعالى أن يجنبنا المزالق ، وأن يثبت فى قلوبنا حبه ، وحب رسوله ، وحب الخير للقريب والبعيد ، وأن يغرس فى نفوسنا مكارم الأخلاق ، وأن يجعلنا من الذين قال فيهم :

﴿ومنَ النَّاس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد﴾ [1] .

وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٢٠٧ .

وخان ما ائتمنه الله عليه من شرائعه وأوامره . خانه فى السر فكان قلبه على غير ما ظهر على لسانه ، ولذلك جازاه الله سبحانه بأن جعل النفاق ملازماً لقلبه حتى مات عليه[1] .

وقد وفد ثعلبة على رسول الله - ﷺ - بعدما علم بنزول الآيات يقدم صدقته ، فأخبره الرسول بأن الله منعه من قبولها ، وكذلك رفض أبوبكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم - أبوا جميعاً أن يقبلوا صدقة لم يقبلها رسول الله ، فنال ثعلبة من الغم ، وضيق الصدر ، والذل والندم ما كان جديراً به .

وقد عللت الآية الكريمة هذه العقوبة : **﴿فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾** .

ثم أشارت الآية الأخرى إلى غفلتهم وجهلهم ، وتوهمهم أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم : **﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾** ، والسرّ ما تنطوى عليه صدورهم ، والنجوى ما يحدث به بعضهم بعضا فيما بينهم ، وكأنهم لوكانوا على يقين من ذلك ما أخلفوا الله ما وعدوه ، وما كذبوا عليه ، وعلى رسوله ، ولما تجرءوا على النفاق .

والله علام الغيوب ، يعلم ما فى الضمائر ، وما تخفى السرائر ، فكيف غاب عنهم ذلك ؟ وكيف توهموا - وهم يضمرون غير ما يعلنون - أن ذلك يخفى على علام الغيوب ؟!

ومن هنا جاء الاستفهام الإنكارى يوجه إليهم أقسى ألوان التوبيخ والتقريع ، ويهيب بعقولهم أن تستيقظ من غفلة النفاق ،

---

(١) وَهِمَ بعض المفسرين كالقرطبى حيث خلط بين ثعلبة بن حاطب ، وحاطب بن أبى بلتعة ، فوصف ثعلبة بأنه أسلم وحسن أسلامه ، وشهد الله له ورسوله بالإيمان ، وإنما هذا هو حاطب كما ذكر ذلك القرطبى فى تفسير أول سورة الممتحنة .

السيرة النبوية : أبومحمد عبدالملك بن هشام الحميرى (٢١٣ ، أو ٢١٨هـ)

تهذيب الأخلاق : لأبى على أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه (ت ٤٢١هـ)

إحياء علوم الدين : لأبى حامد الغزالى (ت ٥٠٥هـ)

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : لمحمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)

الموافقات فى أصول الشريعة : لأبى اسحق إبراهيم بن موسى الشاطبى (ت ٧٩٠هـ)

الإسلام يتحدى : وحيد الدين خان الباكستانى

أصول علم النفس وأثره فى التربية والتعليم : الأستاذ أمين مرسى قنديل

تطور الشعر الدينى : الدكتور مصطفى زيور

تطور الشعر الدينى عند الطفل والمراهق : الدكتور عبدالمنعم عبدالعزيز

الدين والعلم : المشير أحمد عزت باشا

الغرائز وعلاقتها بالتربية : الشيخ محمد الغمراوى بك

أبحاث ومقالات فى المجلات والصحف العربية

العيش . يقرن ذلك بالتضرع ، وبالعزم المصمم على أن يعطى كل ذى حق حقه . يعطف على أقاربه ، ويحنو على اليتيم والمسكين ، ويؤدى حق الله فى ماله ، حتى إذا أزال الله غمته ، ووسع عليه فى الرزق نسى ما كان عليه بالأمس ، ومنع حق الله ، وحق الأقارب والفقراء فى ماله ، واشتد به الحرص ، وأوثق الشح يديه فما يمدهما بخير ، ونزع الجشع الرحمة من قلبه ، فما يحس بحاجة محتاج ، بل نسى الله سبحانه : **﴿وإذا مسَّ الانسان الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلمَّا كشفنا عنه ضرَّه مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضرٍّ مسَّه﴾** [1] .

ثم تراه يختلق المعاذير حتى يكون منها أن هذا المال من جهده وكسبه ، ولا فضل لأحد عليه فيه ، كما أخبر القرآن الكريم : **﴿فإذا مسَّ الإنسان ضرٌّ دعانا ثمَّ إذا خوَّلناه نعمةً منَّا قال إنَّما أوتيته على علمٍ بل هى فتنة ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾** [2] .

إن الكريم ليخفى عنك علته
حتى تراه غنياً وهو مجهود
وللبخيل على أمواله عِللٌ
زرق العيون عليها أوجه سود

وليس فى خدع الشيطان شر من هذه الخدع ، ولا فى لؤم الأخلاق أسوأ من هذا الخلق ، وشر ما يبتلى به هؤلاء الغفلة ، وطول الأمل ، فكأنهم يجهلون أن كل مال عرضة للزوال ، وأن كل نعمة عرضة للآفات ، وأنه لايدوم غنىً ولا فقر ، ولا تستقر نعماء ولا بؤس .

---

(١) سورة يونس – الآية ١٢ .

(٢) سورة الزمر – الآية ٤٩ .

الباب الرابع : وفيه ثلاثة فصول

١ ــ السلوك الأخلاقي للانسان كما يعرضه القرآن ١٣٩

٢ ــ الضمير ١٦٥

٣ ــ تربية الإرادة ١٧١

الباب الخامس : وفيه ثلاثة فصول

١ ــ التَّحلي بالفضائل ــ العدل الاحسان ــ العفو ــ إيتاء ذي القربى ١٧٩

٢ ــ الفحشاء ــ المنكر ــ البغي ١٩٧

٣ ــ نماذج إنسانية يشير إليها القرآن الكريم ٢٠٤

المصـادر والمراجـع

القرآن الكريم .

جامع البيان عن تأويل آى القرآن : محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ)

الكشاف عن حقائق التنزيل : جار الله محمود بن عمر الزمخشرى (ت ٥٣٨هـ)

المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز : عبدالحق بن أبى بكر المعروف بابن عطية (ت ٥٤٢هـ)

مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) : محمد بن عمر فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦هـ)

الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد المعروف بالقرطبى (ت ٦٧١هـ)

مدارك التنزيل وحقائق التأويل : عبدالله بن أحمد النسفى (ت ٧٠١هـ)

تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان : نظام الدين الحسن بن محمد بن حسن القمى النيسابورى (ت . بعد ٨٥٠هـ)

لباب النقول فى أسباب النزول : جلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ)

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : محمد بن محمد المعروف بأبى السعود (ت ٩٨٢هـ)

تفسير المنار : السيد محمد رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ)

البرهان فى علوم القرآن : بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى (ت ٧٩٤هـ)

بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز : محمد بن إبراهيم مجد الدين الفيروز أبادى (٧٢٩ - ٨١٦هـ)

الجامع الصحيح : لأبى عبدالله محمد بن أبى الحسن البخارى (ت ٢٥٦هـ)

الجامع الصحيح : لمسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)

المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج : لمحيى الدين النووى (ت ٦٧٦هـ)

فتح البارى بشرح صحيح البخارى : لأحمد بن على المعروف بابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ)

٢٦ــ تربية النشء في ظل الاسلام — الدكتور محمد محمود عمارة
٢٧ــ مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي — الدكتور محمد شوقي الفنجري
٢٨ــ وحي الله — الدكتور حسن ضياء الدين عتر
٢٩ــ حقوق الانسان وواجباته في القران — حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
٣٠ــ المنهج الاسلامي في تعليم العلوم الطبيعية — الأستاذ محمد عمر القصار
٣١ــ القرآن كتاب أحكمت آياته [٢] — الأستاذ أحمد محمد جمال
٣٢ــ الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج — الدكتور السيد رزق الطويل
٣٣ــ الاعلام في المجتمع الاسلامي — الأستاذ حامد عبد الواحد
٣٤ــ الالتزام الديني منهج وسط — عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
٣٥ــ التربية النفسية في المنهج الاسلامي — الدكتور حسن الشرقاوي
٣٦ــ الاسلام والعلاقات الدولية — الدكتور محمد الصادق عفيفي
٣٧ــ العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية — اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
٣٨ــ معاني الأخوة في الاسلام ومقاصدها — الدكتور محمود محمد بابللي
٣٩ــ النهج الحديث في مختصر علوم الحديث — الدكتور علي محمد نصر
٤٠ــ من التراث الاقتصادي للمسلمين — الدكتور محمد رفعت العوضي
٤١ــ المفاهيم الاقتصادية في الاسلام — د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
٤٢ــ الأقليات المسلمة في أفريقيا — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٣ــ الاقليات المسلمة في أوروبا — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٤ــ الأقليات المسلمة في الامريكتين — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٥ــ الطريق إلى النصر — الأستاذ محمد عبد الله فودة
٤٦ــ الاسلام دعوة حق — الدكتور السيد رزق الطويل
٤٧ــ الاسلام والنظر في آيات الله الكونية — د. محمد عبد الله الشرقاوي
٤٨ــ دحض مفتريات — د. البدراوي عبد الوهاب زهران
٤٩ــ المجاهدون في فطاني — الأستاذ محمد ضياء شهاب
٥٠ــ معجزة خلق الانسان — الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٥١ــ مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية — الدكتور سيد عبد الحميد مرسي
٥٢ــ ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي — الأستاذ أنور الجندي
٥٣ــ الشورى سلوك والتزام — الدكتور محمد أحمد البابلي
٥٤ــ الصبر في ضوء الكتاب والسنة — أسماء عمر فدعق
٥٥ــ مدخل إلى تحصين الأمة — الدكتور أحمد محمد الخراط

الفهرست

الموضوعات	الصفحة

المقدمة ٥

الباب الأول : وفيه ثلاثة فصول

١ ــ أحسن الحديث ١٩

٢ ــ وصف القرآن من آياته وصلة هذه الأوصاف بالانسان ٣٠

٣ ــ وصف النبي للقرآن ــ شهادة بعض المشركين للقرآن ــ وصف المحدثين للقرآن ٤٠

الباب الثاني : وفيه أربعة فصول

١ ــ الانسان ــ كلمة القرآن في الانسان ٤٧

٢ ــ البرهان النفسي ٥٤

٣ ــ الانسان في الآية الأولى من القرآن ٦٦

٤ ــ ضلالة حذر منها القرآن ٩٧

الباب الثالث : وفيه فصلين

١ ــ مقاصد القرآن الكريم ١٠١

٢ ــ صيانة الانسان من أهم مقاصد القرآن ١٠٦

طبع بمطابع رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة

صدر من هذه السلسلة

١ — تأملات في سورة الفاتحة — الدكتور حسن باجودة
٢ — الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه — الأستاذ احمد محمد جمال
٣ — الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين — الأستاذ نذير حمدان
٤ — الاسلام الفاتح — الدكتور حسين مؤنس
٥ — وسائل مقاومة الغزو الفكري — الدكتور حسان محمد مرزوق
٦ — السيرة النبوية في القران — الدكتور عبد الصبور مرزوق
٧ — التخطيط للدعوة الاسلامية — الدكتور محمد علي جريشة
٨ — صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية — الدكتور أحمد السيد دراج
٩ — التوعية الشاملة في الحج — الأستاذ عبد الله بوقس
١٠ — الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره — الدكتور عباس حسن محمد
١١ — لمحات نفسية في القران الكريم — د. عبد الحميد محمد الهاشمي
١٢ — السنة في مواجهة الأباطيل — الأستاذ محمد طاهر حكيم
١٣ — مولود على الفطرة — الأستاذ حسين أحمد حسون
١٤ — دور المسجد في الاسلام — الأستاذ محمد علي مختار
١٥ — تاريخ القرآن الكريم — الدكتور محمد سالم محيسن
١٦ — البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام — الأستاذ محمد محمود فرغلي
١٧ — حقوق المراة في الاسلام — الدكتور محمد الصادق عفيفي
١٨ — القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١] — الأستاذ أحمد محمد جمال
١٩ — القراءات أحكامها ومصادرها — الدكتور شعبان محمد اسماعيل
٢٠ — المعاملات في الشريعة الاسلامية — الدكتور عبد الستار السعيد
٢١ — الزكاة فلسفتها وأحكامها — الدكتور علي محمد العماري
٢٢ — حقيقة الانسان بين القران وتصور العلوم — الدكتور ابو اليزيد العجمي
٢٣ — الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٢٤ — الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر — الدكتور عدنان محمد وزان
٢٥ — الاسلام والحركات الهدامة — معالي عبد الحميد حمودة

العنوان	المؤلف
٥٦ــ القرآن كتاب أحكمت آياته [٣]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٥٧ــ كيف تكون خطيباً	الشيخ عبد الرحمن خلف
٥٨ــ الزواج بغير المسلمين	الشيخ حسن خالد
٥٩ــ نظرات في قصص القرآن	محمد قطب عبد العال
٦٠ــ اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات	الدكتور السيد رزق الطويل
٦١ــ بين علم آدم والعلم الحديث	الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي
٦٢ــ المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان	الدكتور محمد الصادق عفيفي
٦٣ــ من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]	الدكتور رفعت العوضي
٦٤ــ تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	الاستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة
٦٥ــ لماذا وكيف أسلمت [١]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٦٦ــ أصلح الأديان عقيدة وشريعة	الأستاذ عبد الغفور عطار
٦٧ــ العدل والتسامح الاسلامي	الاستاذ احمد المخزنجي
٦٨ــ القرآن كتاب أحكمت آياته [٤]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٦٩ــ الحريات والحقوق الاسلامية	محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٧٠ــ الانسان الروح والعقل والنفس	الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٧١ــ كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية	الدكتور شوقي بشير
٧٢ــ الاسلام وغزو الفضاء	الشيخ محمد سويد
٧٣ــ تأملات قرآنية	الدكتورة عصمة الدين كركر
٧٤ــ الماسونية سرطان الأمم	الأستاذ أبو إسلام أحمد عبد الله
٧٥ــ المرأة بين الجاهلية والاسلام	الاستاذ سعد صادق محمد
٧٦ــ استخلاف آدم عليه السلام	الدكتور علي محمد نصر
٧٧ــ نظرات في قصص القرآن [٢]	محمد قطب عبد العال
٧٨ــ لماذ وكيف أسلمت [٢]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٧٩ــ كيف ندرّس القرآن لأبنائنا	الاستاذ سراج محمد وزان
٨٠ــ الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ	الشيخ أبو الحسن الندوي
٨١ــ كيف بدأ الخلق	الأستاذ عيسى العرباوي
٨٢ــ خطوات على طريق الدعوة	الاستاذ احمد محمد جمال
٨٣ــ المرأة المسلمة بين نظرتين	الأستاذ صالح محمد جمال
٨٤ــ المبادىء الاجتماعية في الاسلام	محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٨٥ــ التآمر الصهيوني الصليبي على الاسلام	د. ابراهيم حمدان علي
٨٦ــ الحقوق المتقابلة	د. عبد الله محمد سعيد